مصر في نفح الطيب

الدكتور / أحمد عبد العزيز
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٨٨

دار الثقافة والنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهراني - الفجالة
القاهرة ت / ٩٠٤٦٩٦

إهداء

الى ولدى :

عمر وسوسن

حتى لا ينسيا وطنهما ،

مصر ٠

* * *

المقـــــدمة

لعل من احدث مجالات الدرس فى الأدب المقارن تتبع الصـورة الكلية أو الجزئية لبلد من البلدان فى أدب ما أو فى أعمال مؤلف من المؤلفين وعلى الباحث فى هذا المجال أن يضع يده على الوسيلة التى تكونت بها هـذه الصورة ، وهى غالبا ما تكون عن طريق الرحالة والمهاجرين . وقد تلعب عواطفهم وميولهم دورا فى تشكيلها تبعا لمـا شعروا به أثناء رحلتهم أو هجرتهم من بغض او حب لذلك البلد ، وكذلك تبعا لمـا شـاهدوه منه(١) .

ولا نريد بهذه التوطئة الموجزة ان نقول بأن دراستنا هذه هى من صميم الأدب المقارن ، فهى تفتقد عنصرا هاما هو عنصر اختلاف اللغة الذى وضعه المنظرون اساسا لبدء المقارنات . ولكن اذا كنا ننظر الى الاندلس باعتبارها مزيجا حضاريا من مجتمعين شرقى وغربى ، عربى واوربى ، مسلم ومسيحى ، واذا كنا نرى لها خصوصيتها وتفردها فاننا نسمح لأنفسنا بتناول عناصر التلاقى والاختلاف ، الاتصال والانفصال بينها وبين مشرقنا العربى .



(١) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع الكتاب الرائد فى اللغة العربية للدكتور محمد غنيمى هلال : الأدب المقارن . دار العودة ودار الثقافة . بيروت . الطبعة الخامسة (بدون تاريخ) ص ٤١٩ ــ ٤٢٨

١ ـ المقرى وكتابه

« مصر فى نفح الطيب » موضوع أردنا به الكشف عن جانب قد يكون طريفا ومفيدا ـ فى نفس الوقت ـ فى مثل هذا الكتاب ، وهو ذكر بلد ما فيه ، والبلد فى هذه الحالة هو مصر ، فثمة كثيرورن ممن ذكرهم المؤلف من الأندلسيين قد نزلوا مصر ، يتردد ذكرها بذكرهم ، والحديث عن دراستهم بالقاهرة أو الاسكندرية أو غيرهما من المدن المصرية ، بل ان منهم من جاء الى مصر ليتعلم ثم عاد الى موطنه : الأندلس ، ومنهم كذلك من تولى القضاء بالقضاء بالقاهرة أو الاسكندرية . واذا أضفنا الى ذلك أن كثيرا من المصريين زاروا الأندلس ، وأن مجالس الشعراء والأدباء العائدين أو الوافدين الى مصر كانت تنصب الأسمار والأشعار والأفكار لعرفنا أهمية هذه الدراسة والهدف الذى تطمح اليه .

أما لماذا اختيرت مصر بالذات فى هذا الكتاب بعينه فذلك لما ورد عن صاحبه من أنه كان قد حدث تلاميذه بدمشق عن لسان الدين ابن الخطيب ومكانته فطلبوا منه وضع كتاب عنه ، ووعد المقرى تلميذه أحمد الشاهينى بالشروع فى ذلك لدى وصوله الى القاهرة المعزية ، وان الشاهينى كتب رسالة الى استاذه بمصر يطلب منه فيها الوفاء بوعده ، وقد كان له ذلك . وأيا كانت الحقيقة حول الدافع الى تأليف الكتاب فان المؤكد ـ كما يذكر المقرى نفسه ـ أنه شرع « بعد الاستقرار بمصر فى المطلوب ، وكتبت نبذة تستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب ، وسلكت فى ترتيبه أحسن أسلوب ، وعرضت فى سوقه كل نفيس وغريب ، من الغرب الى الشرق مجلوب ، تستحسن الأبصار ما عليه احتوى ، وتعرف الأفكار أنه غير مجتوى .... الخ »(١) .

---

(١) المقرى (الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى) : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب . تحقيق ، الدكتور احسان عباس . دار صادر . بيروت ١٩٦٨ . ١/٩٩

واذا كان المقرى قد توقف عن التاليف بعد ذلك لحين ، فانه استأنف تاليف كتابه بعد ورود رسالة من ابن شـــاهين تحثـه على المضى فى التأليف(٢) .

وقد كان المؤلف يزمع أن يسمى كتابه « عرف الطيب فى التعريف بالوزير ابن الخطيب » . ولمـا رأى أن مادته قـد اتسعت لتشـمل الاندلس أدبا وتاريخا ، عمد الى تغيير عنوان الكتاب فصار : « نفح الطيب من غصـن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لســان الدين ابن الخطيب(٣) ، وهكذا جاء الكتاب وقد اشتمل على قسمين : قسـم خاص بالأندلس فى ثمانية أبواب ، يبدأ بوصف جزيرة الأندلس وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد ، ثم يتحدث عن مكانة الدين فى الأندلس ليمضى بعد ذلك الى ذكر قرطبة حاضرة الخلافة ومجدها ، ثم يخصص بابا للتعريف بمن رحل من الأندلسيين الى بلاد المشرق وبابا آخر فى ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق ، وينتهى هذا القسم بسقوط الأندلس أو ما يسميه « تغلب العدو الكافر على الجزيرة » . ثم يأتى القسم الثانى ليدور كله حول لسـان الدين بن الخطيب ، وان كان القسم الأول لم يخل منه باب من كلام لسـان الدين بن الخطيب(٤) .

هذا عن الكتاب ، أما الكاتب(٥) فهو أحمـــد بن محمد المقرى

---

(٢) انظر الرسالة والحديث عنها وعن تأليف الكتاب فـى : النفح ١/٩٩ — ١٠٦

(٣) انظر النفح : ١/١١٧

(٤) انظر منهج الكتاب وتقسيمه الى أبواب كما ذكره مؤلفه فى مقدمته : ١/١١٢ — ١١٧

(٥) اعتمدنا فى هذا التعريف على مقدمة الدكتور احسان عباس لتحقيقه المذكور . انظر الصفحات من ١/٥ الى ١/١٠

القرشى ، كنيته أبو العباس ولقبه شـهاب الدين ، ومقرة مسقط رأسه واليها ينتسب ، أما هو فقد ولد فى مدينـة تلمسان عام ٩٨٦ هـ ، تلقى بها دروسـه الأولى ، ثم ارتحل عنها أول مرة قاصدا فاس عام ١٠٠٩ هـ ثم عاد فى آخر العام التالى ، ولكنه سـافر الى فاس فى عام ١٠١٣ هـ • وبقى فيها حتى عام ١٠٢٧ هـ حيث قرر فى ذلك الحين الرحيـل الى المشرق ، فمضى اليه مارا بتونس وسوسـة والاسكندرية والقاهرة فالحجاز حيث اعتمر ، ثم أدى فريضة الحج وزار قبر الرسـول بالمدينة المنورة • وقفل عائدا الى مصر فى شـهر محرم من عام ١٠٢٩ هـ ، ثم زار بيت المقدس فى نفس ذلك العام ، ولم تنقطع رحلاته للأماكن المقدسـة فى مكة والمدينـة •

وفى مدينة فاس قام المقرى بالامامة والفتوى والخطابة ، وصار عالمـا يشـار اليه بالبنان ، ولكن المغرب وفاس بالذات كانا يتعرضان لظروف متقلبة واحوال مضطربة لا تكفل الهدوء والأمن للأهلين بسبب الصراع على الحكم الذى أعقب وفاة المنصور ، الى جانب الغزوات الخارجيـة التى كانت تتعرض لها المدينة من الاسبان والبرتغاليين •

وفى سـنة ١٠١٦ هـ كان المقرى يشهد ــ عن كثب ــ انقطاع آخر صـلة للعرب ببلاد الأندلس حين تفرقت الجالية الأندلسـية تطلب لها مأوى فى سـلا وتونس وغيرهما من البلاد المغربية «(٦) •

حقا ان المقرى بهذا يمثل تلك الحلقة المفقودة بين اندحار السلطان العربى عن شـبه جزيرة ايبيريا نهائيا والتقاط الحضارة العربية إنفاسها بعد هذا الموت البطىء الذى عانى منه السلطان فى شبه الجزيرة فراح يتقلص شـيئا فشيئا حتى انقضى الى غير رجعة ، فالمقرى اذن خير شاهد

---

(٦) النفح ٦/١

على ذلك العصر ، فبعد ذلك « بثلاث سنوات كان الاسبان يستولون على مدينة العرائش فى المغرب بمواطأة الشيخ المأمون أحد أبناء المنصور ، ولقى هذا العمل استنكارا من الناس ، فلجأ الشيخ الى الفقهاء ليفتوه فى الأمر ، لقد كان هو لاجئا عند صاحب اسبانيا يطلب منه المعونة ، فوعده بها لقاء اعطائه العرائش ، وما سمح له بمغادرة اسبانيا الا بعد أن قدم له أولاده ، رهينة حتى يفى بوعده ، فهل من حقه ان يفدى أولاده بهذا الثغر أم لا ؟ ، وكان هذا السؤال امتحانا عسيرا للمفتين فهرب جماعة منهم واختفوا عن الأنظار ، وكان المقرى واحدا من أولئك الذين لجأوا الى الاختفاء(٧) ٠

هذا ما كان منه فى المغرب فى هذه الفترة العسيرة من تاريخ الأمة الاسلامية ، أما الآن ، فلم يبق لنا الا ان نبحث عنه فى مصر ، ونلقاه على شاطىء نيلها ٠

ترك المقرى الشام واعد العدة للرحيل عن دمشق التى احبها واحب أهلها ، وطال به المقام بمصر ، فنزلت من قلبه سويداءه فاقترن فيها بفتاة من أسرة السادة الوفائية ، ولكن هذا القران كان قصير العهد ، فلم يكلل زواجه بالتوفيق مما اضطره الى الانفصال عنها ، فطلقها ليأوى الى وحدته وآلامه ٠ وفى هذه الفترة يصف لنا الخفاجى ما حدث له فيقول : انه وجد بمصر الحسد والنفاق ، وتجارة الأداب ليس لها بسوقها نفاق(٨) ٠

وعاود المقرى الحنين الى الشام فعقد العزم على ترك مصر والعودة اليه ، ولكن يد القدر لم تمهله حيث توفى فى أواخر عام ١٠٤١ هـ ٠

---

(٧) النفح ١/٧ ، عن الاستقصاء ٦ : ٢١
(٨) النفح ١/١٠ ، عن ريحانة الالباء : ٢/١٧٥

بين هذا المد والجزر ، بين هذا الحب والبغض ، بين كل هذه العواطف المتضاربة يقف صاحب النفح ، فنراه يصف لنا أولا رحلته البحرية الى مصر المحروسة التى وصلها بعد التجواب والضرب فى الفيافى والمجاهل ، فتشفى أدواءه وتبرىء آلامه :

« ثم وصلنا بعد خوض بحار ، يدهش فيها الفكر ويحار ، وجوب فياف مجاهل يضل فيها القطا عن المناهل ، الى مصر المحروسة ، فشفينا برؤيتها من الأوجاع وشاهدنا كثيرا من محاسنها التى تعجز عن وصفها القوافى والأسجاع »(٩) .

وما أن يحط الرحال بمصر حتى يعصف به الاحساس بالغربة ، والنسيان الذى يعانى منه عظماء الرجال حين يصلون ـ لأول وهلة ـ الى مكان جديد ، فينتابهم شعور بجهل الآخرين لقدرهم ، فيركن الواحد منهم الى التجرد والزهد عن المعالى والشهرة . يذكر لنا المقرى نفسه هذا فيقول : « وكما قلت عندما صرت الى الاغتراب والت :

تركت رسوم عزى فى بلادى   وصرت بمصر منسى الرسوم
ورضت النفس بالتجريد زهدا   وقلت لها : عن العلياء صومى
مخافة ان ارى بالحرص ممن   يكون زمانه احد الخصوم .. »(١٠)

وفى هذا الصدد يستشهد المقرى بشعر كثير لشعراء آخرين ، فى ترك الحمى والأسف على ماضى الزمان .

ويمضه البعد عن الاحباب بعد أن استقر بمصر ، ويرى النيل قوة

---

(٩) النفح ١/٣٥
(١٠) النفح ١/٧٤

لا تغلب ، استحوذت على لبه حتى انسته احبابه بدمشق ، فيتذكر ما قيل فى ليالى الشام وايامه العذبة التى تحولت الى عذاب ونار ذاكية مع هذا الجوى والنوى والشجو والأرق : « فان انشد لسان الحال فيما اقتضاه معنى البعد عنها والارتحال (يقصد دمشق) :

يا غائبا قد كنت احسب قلبه	بسوى دمشق واهلها لا يعلق
ان كان صدك نيل مصر عنهم	لا غرو ، فهو لنا العدو الأزرق

اتيت فى جوابه ، بقول بغض من برح الجوى به :

لله دهر جمعنا شمل لذاته	بالشام اعذب من أمن على فرق
مرت لياليه والأيام فى خلس	كأنما سلبته كف مسترق
ما كان احسنها لولا تنقلها	من النعيم الى ذاك من الحرق
رق العذول لحالى بعدها ورثى	لى فى الجو والنوى والشجو والأرق

ويعصف الشوق بالمقرى الى بلاد الشام فينشد ما قيل فى الحنين اليها ويكثر منه(١١) ، ويسلى نفسه المكروبة بالحديث الى مفتيها طالبا من حادى الاظعان الى تلك الديار أن يحمل تحياته كذلك الى خيامها ، ويرد عليه مفتى الشام ـ العمادى ـ الذى ذكره باسمه ، فيحيى مصر

---

(١١) يقول المقرى متشوقا الى الشام :

« ولسان حالى الآن ينشد قول بعض الأكابر :

نحن فى مصر رهن شوق اليكم	هل لديكم بالشام شوق الينا
فعجزنا عن أن ترونا لديكم ..	وابيتم عن أن نراكم لدينا
حفظ الله عهد من حفظ العهـ	ـد ووفى به كما قد وفينا »

النفح : ٤٨٥/٢

مبتدئا بالمقرى الهمام كذلك ، ولا ينسى ان يذكر مكانته العلمية الى جانب وفائه لبلاد الشـــام(١٢) .

وقد أمضى المقرى فى مصر عقدا ونيفا ، وليس لهذا وحده وحسب نتحدث عن مصر فى كتابه ، بل لأن هذا العقد كان أخصب فترات حياته ، ففيه صنف نفح الطيب وتزوج من مصر ، وفى خاتمته امتدت اليه يد المنون قبل أن يبارح تراب هذه الأرض الطيبة .

* * *

---

(١٢) خاطب المقرى مفتى الشام بأبيات منها :

« يا حـــادى الأظعان نحـــو الشـــام   بلغ تحياتى لتلك الخيـــــام
وابدأ بمفتيها العمادى الرضى   دام به شمل الهنا فى التئـــام
فأجابنى بما نصه :
الى أهالى مصر أهدى الســـلام   مبتدئا بالمقـــرى الهمــــــام
من ضـــاع نشر العلم من عرفـــه   ولم يضـــع منه الوفا للذمام »
النفح : ٢»٤٤٧

٢ ـ مدن الأندلس وأسماء المدن المشرقية

لقد درج الأندلسيون على اطلاق أسـماء بعض المدن المشرقية على مدن اندلسية لأنهم وجدوا ـ فى بعض الأحيان ـ شبها بين تلك المدن فى المشرق وهذه التى يعيشون فيها فى أقصى مغرب العالم الاسلامى . ولقـد قال أبو عبيد البكرى عن الأندلس بصفة عامة : « الأندلس شامية فى طيبها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظم جباياتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافـع سـواحلها ..... الخ(١) .

واذا كان أبو عبيد البكرى يريد أن يقول : أن الأندلس قد اجتمع لها كل جمال الدنيا وبهائها الذى تفرق بين الشام واليمن والهند والأهواز والصين وعدن ثم اليونان وغير ذلك ، فان اطلاق أسماء المدن المشرقية على مدن الأندلس ربما كان للسبب المشـار اليه ، أو لهذا الشبه الذى ذكرناه ، أو ربما كان راجعا الى جنسية الجنود الفاتحين الذين استقروا فى هذه الأماكن فغرناطة مثلا يطلق عليها : دمشـق . قال الشـقندى : « أما غرناطة فانها دمشق بلاد الأندلس ... »(٢) وفى النفح : « وتسمى كورة البيرة التى منها غرناطة ، دمشق ، لأن جند دمشق نزلوها عند الفتح ، وقيل : انما سميت بذلك لشـبهها فى غزارة الأنهار ، وكثرة الأشجار ... »(٣) .

أما مدينة اشبيلية فتسمى حمص ، وقد ورد ذلك فى الشعر ، حيث قال أبو محمد عبد الوهاب المنشى :

---

(١) النفح : ١/١٢٦

(٢) النفح : ١/١٤٧ ، وكذلك ١/١٧٦ و ١٧٧

(٣) النفح : ١/١٤٨

« وحمص لا تنس لها تينها   واذكر مع التين زياتينهـــا

وفى بعض النسـخ :

لا تنس لاشـــبيلية تينهـــا   واذكر مـــع التين زياتينهـــا

وهو نحو الأول ، لأن حمص هى اشبيلية ، لنزول أهل حمص من المشرق بها (٤) . وفى موضع آخر يقول المقرى :

« واعلم أن اشبيلية لها كور جليلة ، ومدن كثيرة ، وحصـــون شريفة ، وهى من الكور المجندة ، نزلها جند حمص ولواؤهم فى الميمنة بعد لواء جنـد دمشق »(٥) .

وفى معرض التفاخر بين مدن الأندلس فى رسالة ابى بحر صفوان ابن ادريس الى الأمير عبد الرحمن ، وهو ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن ابن على نجد بلنسية تشبه نفسها برصافتها وجسرها بمدينة بغداد بما فى ذلك من اشـارة الى قول على بن الجهم : « عيون المها بين الرصـافة والجسر ... » فقـد ورد على لسان هذه المدينة فى هـــذا المعنى : « ... فلى المحاسن الشامخة الأعلام ، والجنات التى تلقى اليها الآفاق يد الاستسلام ، وبرصافتى وجسرى اعارض مدينة السلام .. »(٦) .

ونستطيع ان نعرف الى اى مدى كان العرب يستلهمون بلدان المشرق ومدنه فى تسميتهم لمدن الأندلس من ذلك التقسيم الذى صنعه أبو الخطار

---

(٤) النفح : ١/١٥١ ، ١٥٢

(٥) النفح : ١/١٥٨

(٦) النفح : ١/١٧٤

حسـام بن ضرار الكلبى الذى قدم اليها من قبل حنظلة بن صفوان عامل افريقية عند ما شبت الفتنة فى ولاية ثعلبة بن سـلامة الجذامى الذى كان متعصبا ليمانيته ، وعندما جاء ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبى حمل على عاتقه هذه المهمة اذ « كثر أهل الشـام عنده ، ولم تحملهم قرطبة ، ففرقهم فى البلاد ، وانزل اهل دمشق البيرة لشبهها بها ، وسماها دمشق وانزل أهل حمص اشبيلية وسماها حمص ، وأهل قنسرين جيان ، وسماها قنسرين وأهل الأردن رية ومالقة ، وسماها الأردن ، وأهل فلسطين شذونة ـ وهى شريش ـ وسماها فلسطين ، واهل مصر تدمير ، وسماها مصر ... »(٧) .

وتدمير هذه هى مرسية ، وقد اطلق عليها اسم مصر لأمرين : أولهما هو ما ذكرناه من نزول أهل مصر بها ، وثانيهما لوجوه الشبه بينها وبين مصر فى انبساط أرضها ، وفيضان النهر الذى يغمرها فى وقت معين من العـام ، وزراعتها بنفس طريقة زراعة الأرض فى مصر . يقول المقرى :

« ومن كور الأندلس الشرقية تدمير ، وتسمى مصر ايضا لكثرة شبهها بها ، لان لها ارضا يسيح عليها نهر فى وقت مخصوص من السنة ، ثم ينضب عنها ، فتزرع كما تزرع ارض مصر ، وصارت القصبة بعـد تدمير مرسـية ، وتسمى البستان لكثرة جناتها المحيطة بها ، ولها نهـر يصب فى قبليها »(٨) .

* * *

---

(٧) النفح : ٢٣٧/١

(٨) النفح : ١٦٤/٦

٣ ـ صورة مصر

اذا كان الاندلسيون قد أطلقوا اسم مصر على تدمير او مرسية لوجوه الشبه التى رصدها المقرى بينها وبين هذه المدينة من ناحية الأرض المنبسطة وفيضان النهر فى وقت معين من العام مما يشبه فيضان نهر النيل فى ذلك الحين ، وزراعة هذه الأرض الأندلسية بنفس الطريقة التى كانت تزرع بها الأرض فى مصر ٠٠٠٠ الخ ، واذا كان الذين نزلوا فى هذه المنطقة من المصريين الذين دخلوا مع الفتح العربى فان هذا كله يبين فى جانب منه مدى الاهتمام بمصر فى الأندلس ٠

واذا تتبعنا الذين الفوا شعرا عن مصر فى الأندلس فاننا نستطيع أن نحصرهم فى عدة فئات نرتبها على النحو التالى تبعا لكثرة الشعر المنسوب الى كل فئة : فعلى رأس هؤلاء جميعا يأتى الأندلسيون والمغاربة ، يليهم المصريون ، ثم غيرهم من الشاميين والعراقيين وأضرابهم ٠ ثم تأتى مجموعة من الشعر غير المنسوب الى قائل ٠ ولعلنا اذا نظرنا الى كل فئة من هذه الفئات على حدة بنية استخلاص صورة عامة لمصر فى « نفح الطيب » ، فاننا لا نستطيع ذلك ، لأن ما سيتجمع لدينا هو عدة صور عن مصر قد تختلف من فئة الى أخرى ، أو قد تتفق ، وقد آثرنا الا نصنع هذه التجزئة لنصل الى الصورة الحقيقية الكاملة بكل ابعادها ومتناقضاتها ، فنحن نعلم أن الشاعر الواحد قد يمدح تارة ويذم تارة تبعا لحالته النفسية والوجدانية ، ومن هنا آثرنا أن نلم شتات هـذه الصورة بجوانبها المتعددة من خلال الظواهر التى تقدمها لنا جميعا ، فنحن هنا لا ندرس الشعراء الذين الفوا شعرا عن مصر وانما نستخلص مما قالوه جوانب صورة مصر ٠ وقد رأينا أن جوانب هذه الصورة يمكن أن تستجلى من اتجاهين أساسيين سار فيهما هذا الشعر ، أما الأول فهو الوصف الخالص والتصوير الفنى لمصر وآثارها ومعالمها ٠ واما الثانى فهو الوصف النفسى ـ اذا شئنا التعبير ـ أو تصوير عواطف الشعراء المتضاربة ازاء هذا كله ٠

أولا : تصوير مصر

١ ـ النيل :

لعل النيل ، ذلك النهر العظيم ، الذى وهب مصر الحياة ، هو اول وأهم ما يستحوذ على انتباه الزائر لمصر ، لأول وهلة ، وهو الشيء الباقى معه اذا رحل عنها ، وهو ما يظل فى وجدان ابنائها حين يتركونها الى حين .

وهذا هو ابو الصلت أمية بن عبد العزيز بن ابى الصلت الاشبيلى الذى « يقال أن عمره ستون سنة ، منها عشرون فى بلده اشبيلية ، وعشرون فى أفريقية عند ملوكها الصنهاجيين ، وعشرون فى مصر محبوسا فى خزانة الكتب ، وكان وجهه صاحب المهدية الى ملك مصر ، فسجن بها طوال تلك المدة فى خزانة الكتب ، فخرج فى فنون العلم اماما ، وامتن علومه الفلسفة والطب والتلحين .... »(١) هذا هو ابو الصلت الذى رحل من الأندلس الى مصر والى مدينة الاسكندرية بالذات أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله(٢) ، يقف امام منظر النيل حين وصل الى

---

(١) النفح ١٠٥/٢

(٢) النفح ٤٩٦/١ . انظر فيه هامش احسان عباس واشارته الى ترجمة ابى الصلت امية فى :

ابن ابى أصيبعة ٥٢/٢

معجم الأدباء ٥٢/٧

تحفه القادم ص ٣

تاريخ الحكماء ص ٨٠

. وفيات الاعيان ٢٢٠/١

. والمغرب ٢٥٦/١

القاهرة ، ويصف حاله من الزيادة والنقصان ، فهو فى حالة الفيضان وهو محمل بالطمى المشوب بالحمرة يحكى لون الورد ، فاذا نقص وتغير لون مائه فان صفاءه وهدوءه يشبهان صفاء مائه وهدوءه :

« ولله مجرى النيل منها اذا الصبا ارتنا به من مرهـــــا عسكرا مجرا
اذا زاد يحكى الورد لونا ،وان صفا حكىماءهلونا ،ولم يعدهنشرا »(٣)

والحديث عن احمرار النيل وتغير لونه كثير عند الشعراء ، واذا

وانظر قول ابن سعيد عنه : « وكان قد خرج من اشبيلية فصحب بالمهدية ملوكها الصنهاجيين ، وتوجه فى رسالة الى مصر ، فسجن فى القــاهرة فى خزانة البنود ، وكان فيها خزائن من اصناف الكتب ، فأقام بها نحو عشرين سنة ، فخرج منها وقد برع فى علوم كثيرة ، من حديثة وقديمة . وصنف كتاب الحديقة على منزع كتاب اليتيمة ، فى فضــلاء عصره ، وصنف الرســالة المصرية ، وصنف فى الطب والتنجيم والألــحان ، وعنه أخذ أهل افريقية الألحان التى هى الآن بأيديهم . وعاد الى المهدية فجل قدره وعظم عند ملوكها ذكره ، وأعقب هنــالك عقبــانا بها » المغرب ٢٦٢/١

(٣) النفح ٤٩٧/١

ذكر المقرى هذه الأبيات أيضا فى مقدمته للكتاب ولم ينسبها الى قائل كما يلى :

وقول آخر :

ولله مجرى النيل منه اذا الصبا أرتنا به من مرها عســكرا مجرا
بشــــط يهز الســـمهرية ذبــلا وموج يهــز البيض هنــدية بترا
اذا مد حاكى الورد لونا ، وان صفا حكى ماءه لونا ، ولم يحكه مرا »

النفح ٣٧/١

كان أبو الصلت قد شبه لون النيل اثناء الفيضان بالورد فان ابن الصاحب يشبهه بالشقيق اثناء حديثه عن فرحة الناس به ، حيث يرون فيه مصدرا للبركة والخير ، ويشبهه كذلك بالعقيق الأحمر ، فهو كهذه الاحجار الثمينة فى قيمته عند المصريين :

« فرح الأنام بنيلهم اذ صار أحمر كالشقيق
وتبركوا بشروقه فكأنه وادى العقيق »(٤)

والحديث عن فيضان النيل لا يبقى خارج نفس الشاعر ، وانما يرتبط بمشاعره وأحاسيسه بحيث يمثل الفيضان دمع الشاعر ، واضطراب الموج خفقان قلبه :

« انظر الى النيل الذى ظهرت به آيات ربى
فكأنه فى فيضه دمعى ، وفى الخفقان قلبى »(٥)

وهو نفس المعنى الذى قاله الشاعر المصرى ابن النقيب(٦) ، ولكنه اضاف اليه تفرد الصب بالهوى بعد رحيل أحبابه ، والى جانب دمعه الذى صار النيل كله فان خده يبكى دما ، وهو بهذا يشبه مقياس النيل :

---

(٤) النفح ٣٩/١
يذكر المقرى فى نفس المعنى ابياتا غير منسوبة الى قائل :
احمر للنيل خد حتى غدا كالشقيق
وقد ترنمت فيه اذ صار وادى العقيق
النفح ٣٩/١

(٥) شعر لم ينسب الى قائل فى : النفح ٣٦/١

(٦) يقول عنه د. احسان عباس : « هو الحسن بن شاور ناصر الدين ابن النقيب (ـ ٦٨٧) أحد شعراء مصر المشهورين بالتورية وأكثر شعره مقطعات (الفوات : ١ : ٢٣٢) » النفح ٣٧/١

« الصب من بعدهم مفرد ودمعه النيـــل وتعليقـــد
وخـده لما بكاهم دمـــا مقياســه والدمـــع تخليقه »(٧)

وهكذا تتسع الصورة شيئا فشيئا فهى لا تقف عند تغير لون ماء النيـل الى الحمرة اثناء الفيضان ، وانما تمتد لتعطى صورة تفصيلية لهذه العجيبة البكر التى لم يسمع احد بمثلها ، عجيبة النيل الذى يلقى الأرض فى المـاء مسلما عليها ثم يودعها ، فهو ما يلبث أن يفيض على الأرض حتى ينحسر عنها ويودعها ، وهنا يراه الشـاعر الى جانب هذه الصورة فى صورة الهلال الذى يستمر فى الزيادة وما ان يصل الى الاكتمال ويصير بدرا حتى يتراجع ويتناقص شأنه شـأن النيل تماما :

« واها لهذا النيل ، اى عجيبـة بكر بمثل حـديثها لا يســـمع
يلقى الثرى فى المـاء وهو مسـلم حتى اذا ما مـــال عـاد يودع
مســتقبل مثل الهـلال فدهـــره ابدا يزيد كما يزيد ويرجع »(٨)

أما ابراهيم بن عبدون فيرى فيضان هذا النيل أو مده يجىء بالمسك والصندل ، ولعله يشير بذلك الى الطمى الذل لم يعد يمثل بالنسبة له اللون الأحمر وحسب ، وانما تجاوز ذلك الى عبق المسك والصندل ، أما البدر الذى ينعكس ضوؤه على أمواجه فيراه متموجا تموج البرق فى السحاب المسبل ، ويرى أضواء المصابيح على جانبى النيل كأنها تلك النجوم الزهر فى ليل كثيف الظلمة ، ولكنه يشبه الرياض بانبثاق انوارها من الزهر :

« والنيل بين الجانبين كأنمـــا صـدئت بصفحته صفيحة صيقـــل

---

(٧) النفح ١/٣٨ و (الفوات : ١ : ٢٣٤) .
(٨) لم ينسب لقائل . انظر :
النفح ١/٣٧

يأتيك من كدر الزواخر مــــده | بممســـك من مائه ومصنـــدل
فكأن ضوء البدر فى تمويجــه | برق تموج فى سحاب مسبل ..
وكأن نــور السرج من جنبــاته | زهر الكواكب تحت ليـل اليـل
مثـــل الرياض مفتقـــا أنــواره | تبدو لعين مشبه وممثـــل »(٩)

❊ ❊ ❊

٢ ـ النيل وجنة الخلـد :

اذا كان الشعراء قد انبهروا بالنيل فانهم دائما ينظرون اليـه كجزء من المنظر الطبيعى العام الذى يمتد على هــذه الأرض فتبدو فى أحلى صورها وابهاها ، وقد تراوح انفعال الشعراء بهذاء الجمال بين التصنع والمباشرة أو التعبير التلقائى ، ثم محاولة خلق صورة فنية فيها قدر من الابداع . أما الجــانب الأول ، وهو الذى يمثـل التصنع ، فنضرب له مثالا بقول ابن جابر الأندلسى (١٠) :

« مازلت أسند من محاسن أرضها | خبرا صـحيحا ليس بالمقطـــوع
كم مرســـل من نيلها ومســـلسل | ومدبج من هضبها المرفوع »(١١)

---

(٩) النفح ٣٩/١

(١٠) ورد فى هامش د. احسان عباس . النفح ٣٨/١ : « ابن جابر : محمد بن أحمد بن على بن جابر الأندلسى الأعمى (ــ ٧٨٠) صاحب بديعية العميان . هاجر مع صاحبه الرعينى الى بلاد الشــام ، وله شرح على ألفيه ابن مالك وآخر على ألفيه ابن معطى (انظر الدور الكامنة ٣ : ٣٣٩ ونكت الهميـان : ٢٤٤ والوافى ٢ : ١٥٧ وبغيـــة الوعاة : ١٤ وغاية النهاية ٢ : ٦٠) .

(١١) النفح ٣٨/١

ومن الواضح انه يستخدم مصطلحات الحديث في ذكر الخبر الصحيح والمقطوع والمرسل والمسلسل والمدبج والمرفوع ، في تورية مفتعلة تضم كل هذه المصطلحات ٠

أما المباشرة فنراها في قول أحمد بن فضل الله العمري(١٢) :

« لمصر فضل باهر بعيشها الرغد النضر
في سفح روض يلتقي ماء الحياة والخضر »(١٣)

واذا كانت المباشرة تبدو عنيفة في فضل مصر الباهر وعيشها الرغد النضر الا أنها تخف قليلا في البيت الثاني لترتفع الى سفح الروض الذي يمثل أرض مصر حيث يلتقي ماء الحياة الممثل في النيل ، والخضر ، وهي الأرض الخصبة الخضراء على جانبيه ٠ وتظل هذه المباشرة في التقلص حتى تصل الى ما يسميه البلاغيون « التشبيه البليغ » ومنه تبدأ صورة فنية كاملة رسمها ابن ناهض لمصر التي صارت الجنة :

« شاطيء مصر جنة ما مثلها في بلد
لا سيما مذ زخرفت بنيلها المطرد
وللرياح فوقه سوابغ من زرد
مسرودة ما مسها داودها بمبرد
سائلة وهو بها يرعد عاري الجسد
والفلك كالأفلاك بين حادر ومصعد »(١٤)

---

(١٢) ورد في هامش د٠ احسان عباس ٠ النفح ١/٣٧ : أحمد ابن فضل الله العمري شهاب الدين (ـ ٧٤٩) صاحب مسالك الأبصار (انظر ترجمته في الدور الكامنة ١ : ٣٣١ والنجوم الزاهرة ١٠ : ٣٣٤) ٠

(١٣) النفح ١/٣٧

(١٤) النفح ١/٣٥

فى هذه اللوحة يتحول شاطىء مصر الى جنة لا نظير لها فى اى بلد فى العالم ، ثم تأتى تفاصيل هـذه اللوحة ، فالجنة لابد لها من نهر يزينها هـو النيل ، والنيل تداعبه الرياح فتبدو تجاعيد المياه كأنها الدروع الحديدية ، وعلى الرغم من أنها دروع الا أن داود الذى اشتهر بصنعها لم يمسسها ولا يد له فيها ، ومع ذلك فان الشـاعر يستوحى الكلمات المتصلة بصنعة نبى الله داود مثل « سوابغ » ، « مسرودة » وهى مأخوذة من قوله تعالى فى سـورة سـبأ ى ٣٤ « .. أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا » ، ثم تكتمل الصورة بأن هذه السوابغ سائلة والنيل بها يرتعد عارى الجسـد ، أما العنصر الأخير فى اللوحة فهو الفلك (السفينة) التى تشبه الأفلاك وهى تنحدر وتصعد ، فهى تسير فى المـاء كما تسير تلك فى السـماء .

وهكذا يفيض النيل من جنة الخلد على الترع التى تهب فيها الأرواح مثلما تهب الريح فالنيل واهب الحياة للبشر ، وهو حينما يزيد لا يزيد ماء وانما أرزاقا وأرباحا ، هذا النيل العجيب حلو الشمائل ، اصطفت على ضفتيه أدواح الأشـجار كما فى هذه الصورة التى يعرضها ابن خروف الشاعر ، وهو غير النحوى(١٥) :

---

(١٥) ورد فى هامش د. احسان عباس : النفح ٦٤٠/٢ : « المسدى على بن محمد بن على بن محمد المشهور بابن خروف وبالدريدنة ، له ترجمة فى الذيل والتكملة : ٣١٩/٥ ، وصـلة الصـلة : ١٢٢ والتكملة رقم ١٨٨٤ ووفيات الأعيان ٢٢/٣ وبرنامـج الرعينى : ٨١ وجـــذوة الاقتباس : ٣٠٧ ومعجم الأدباء ٧٥/١٥ ، وهذا هو ابن خروف النحوى الحضرمى الاشبيلى الذى توفى باشبيلية سنة ٦٠٩ ، أما الشـاعر فان اسمه على بن محمد بن يوسف بن خروف القرطبى وله ترجمة فى صلة الصلة : ١١٤ والتكملة رقم ١٨٩٤ ، والذيل والتكملة ٣٩٦/٥ ومسالك الأبصار =

« ما اعجب النيل ما احلى شمائله | في ضفتيه من الأشجار ادواح
من جنة الخلد فياض على ترع | تهب فيها هبوب الريح ارواح
ليست زيادته ماء كما زعموا | وانما هي أرزاق وارباح »(١٦)

* * *

٣ ـ النيل والفسطاط :

اكثر من ذكر الفسطاط هو ابن سعيد صاحب كتاب المغرب فى حلى المغرب وهو اشهر كتبه ، وفيه ترجم لنفسه ، وذكر ميلاده ، بغرناطة ورحلاته مع أبيه فى بر الأندلس وبر العدوة والغرب الأوسط وافريقية والاسكندرية ثم القاهرة وحلب وذكر حجه فى نفس السنة التى رحل فيها الى حلب وهى سنة ٦٤٧(١٧) ٠

=

٤٨٠/١١ ، وهذا هو المقرى يخلط بين الاسمين فيترجم للشاعر تحت اسم النحوى ، وقد وقع فى هذا الخلط ابن شاكر فى الفوات ١٦٠/٢ والسيوطى فى بغية الوعاة ، ٣٥٤ ، وابن الساعى فى الجامع المختصر : ٣٠٦

(١٦) النفح ٦٤١/٢

(١٧) انظر ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ٠ تحقيق د٠ شوقى ضيف الجزء الثانى ٠ ذخائر العرب ١٠ ٠ دار المعارف ١٩٨٠ ص ١٩٢ ، حيث يقول عن نفسه : « على بن موسى بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد ، هو مكمل تصنيف هذا الكتاب ، ولد بغرناطة فى شوال سنة عشر وستمائة ، ورحل منها فجال مع ابيه فى بر الأندلس وبر العدوة والغرب الأوسط وافريقية الى الاسكندرية ، وترك والده بالاسكندرية ، ورحل الى القاهرة ، ثم عاد اليها ، فحضر وفاته ، ثم رجع الى القاهرة ، =

يصف ابن سعيد الفسطاط والنيل فى ليلة باتها ــ كما يقول ــ بطيارة مرتفعة على جانب النيل ، فقد نزل فى أحسن منزل من الفسطاط يطوقه النيل كما لو كان عقدا على صدر هذا المكان ، ويصف المراكب وقد اجتمعت فيه فى وقت السحر كسرب القطا الظامىء الذى يريد ورود الماء بينما يطفو الموج وترتمى طيور القطا وتطرب احيانا ، واحيانا تلعب بالنرد أو هو الموج نفسه الذى يفعل ذلك ، وماء النيل حلو حلاوة ريق المحبوب ، وعليه تمتد حلة من حلى خد المحبوب ، وهذا المحبوب يشبه النهر قبل مده وفيضانه ، وعندما جاء المد زاده جمالا فصار كالورد . وهذه الصورة الأخيرة هى الصورة التى يشبه بها النيل ابان الفيضان حين يتغير لون مائه الى الحمرة ، ويفسر ابن سعيد هذا المعنى بقوله : « وقلت هذا لأنى لم أذق فى المياه أحلى من مائه ، وانه يكون قبل المد الذى يزيد به ويفيض على أقطاره أبيض ، فاذا كان عباب النيل صار أحمر »(١٨) ، تقول أبياته عن النيل والفسطاط :

« نزلنا من الفسطاط أحسن منزل — بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سحرة — كسرب قطا أضحى يرف على ورد
واصبح يطفو الموج فيه ويرتمى — ويطرب احيانا ويلعب بالنرد
حلا ماؤه كالريق ممن أحبه — فمدت عليه حلة من حلى الخد
وقد كان مثل النهر من قبل مده — فأصبح لما زاده المد كالورد »(١٩)

=

ثم رحل الى حلب فى صحبة الصاحب الكبير الحسن كمال الدين بن أبى جرادة ، ثم عزم على الحج فى هذه السنة ، وهى سنة سبع وأربعين وستمائة . يسر الله ذلك بمنه » .

المغرب ٢/١٧٢ ، ١٧٣

(١٨) النفح ٢/٣٤٢

(١٩) النفح ٢/٣٤٢

ولا يكتفى ابن سـعيد بشعره هو فى الفسطاط وانما يروى عن غيره شعرا فيها مثل هذا الذى يرويه عن ايدمر فى مدح الفسطاط ، حيث يصورها كوالدة تحنو على ابنائها وتجنبهم دار الجفاء ، فالنيل يرد اليها كدرا معكرا ، ولكن ـ كما يقول الشاعر ـ يصفو عندما يمتزج بأهليها ، ويجد الشاعر فى هذا مدخلا الى مدح اهل الفسطاط فهم يتسمون باللطف والرقة الى درجة أن المزن لا تالفهم خجلا منهم لانها تراهم الطف منها ، ويؤكد ابن سعيد هذا المعنى ، بل ويرى أهل الفسطاط الطف من اهل القاهرة ، ولكنه يعلل لذلك بأن لطافة أهل الفسطاط ولينهم تخبىء تحتها الملق والرياء وسوءات أخرى كعدم رعاية الصاحب ، وفى هذا المعنى وغيره يقول ابن سعيد : وانشدنى علم الدين فخر الترك أيدمر عتيق وزير الجزيرة فى مدح الفسطاط :

حبذا الفسطاط من والـدة جنبت أولادها دار الجفا
يرد النيـل اليها كـدرا فاذا مازج أهليها صفا
لطفوا فالمزن لا تالفهم خجلا لما راتهم الطفا

ولم أر فى أهل البلاد الطف من أهل الفسطاط حتى انهم الطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين ، والحال ان اهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة واللين فى الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدر الصحبة وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره(٢٠) .

وينقل المقرى عن ابن سعيد ما حكاه عن كتاب الكمائم للبيهقى فى فسطاط مصر وبنى طولون ومسجد ابن طولون ، وعن كتب أخرى ككتاب نزهة المشتاق للادريسى ، وفيها ينشد ابن سعيد للشريف العقيلى شعرا يحن فيه الى الفسطاط ودعو لها الا يحل بها المطر فهى ليستفى حاجة

(٢٠) النفح ٣٤٢/٢

الى المطر ــ فى رايه ــ لأن النهر فى كل مكان منها ، ثم يصفها كالعروس ليلة العرس والمقطم تاجها وقد اتخذت من النيل عقدا لها انتظم على صدرها مثل الدر :

« أحن الى الفسطاط شوقا واننى لأدعو لها أن لا يحل بها القطـــر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابهـــا وفى كل قطر من جوانبها نهـــر
تبدت عروســـا والمقطم تاجهـــا ومن نيلهاعقد كماانتظم الدر»(٢١)

واذا كان الشاعر لا يدعو للفسطاط بأن يحل بها القطر فانه يفعل عكس ذلك مع أرض الطبالة بالقاهرة ، ويصوغ نفس المعنى بعد ذلك ، وان كانت الأبيات الثلاثة السابقة هى للشريف العقيلى ، فان ابن سعيد يصور أرض الطبالة أيضا كالعروس التى تتجلى يوم عرسها ، والمـاء حولها كالعقود ، ويجانس بين قطر وقرط حين يرى فى كل قطر منها قرطا ، كما أنه يجانس جناسا تاما فى كلمة « قرط » التى وردت فى البيت الأول والثانى بمعنيين مختلفين ، فالأرض التى يتحدث عنها أرض خصبة يكسوها ويزينها نبات الكتان والقرط وهو ما تعلفه الدواب ، اما القرط الثانية فهى المعروفة وهى الحلى التى تعلق فى آذان النساء :

« سقى الله أرضا كلما زرت روضها كسـاها وحلاهـا بزينته القــرط
تجلت عروسا ، والمياه عقودهـا وفى كل قطر من جوانبها قرط»(٢٢)

* * *

٤ الخليــج :

يدخل ابن سعيد الخليج الذى بين القاهرة ومصر ، ولعله ما يسمى الآن « فم الخليج » ويتحدث عن العجائب التى رآها فيه من شراب

(٢١) النفح ٣٣٨/٢
(٢٢) النفح ٣٤٦/٢

وعربدة وسكر وقد يؤدي السكر الى القتل مما جعل المسئولين يمنعون الشرب فيه أحيانا ، ويصفه ويصف ما به من خلاعة مما جعل المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب ليلا ، ويذكر أيضا أن « اهل الستر » يتفرجون فيه ليلا ، ولعله يقصد الميسورين الأغنياء ، اذا كانت « الستر » بفتح السين ، أو النساء المحجوبات اذا كانت الكلمة بكسرها . يقول ابن سعيد : « وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر وتعظم عمارته فيما يلى القاهرة ، فرايت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشراب ، وذلك فى بعض الأحيان ، وهو ضيق ، عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم والطرب والمخالفة ، حتى ان المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب ، وللسرج فى جانبيه بالليل منظر ، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر فى الليل »(٢٣) .

ولكن الشعر الذى يورده ابن سعيد بعد ذلك يحدد بدقة معنى الستر فى قوله أهل « الستر » حيث نتبين انه ستار الظلام الذى يستر أو يغطى اصحاب اللذة والعربدة فى هدا المكان ، ففى الأبيات يرد قوله : « الا اذا اسدل الظلام » وقوله : « والليل ستر على التصابى » فمعنى الستر بالكسر والستر بالفتح واردان . ويبدو أن الخليج فى ذلك الحين كان بديلا « لكازينوهات » شارع الهرم فى وقتنا الحاضر . وها هو ابن سعيد الأندلسى يدعو الى عدم الركوب فى الخليج الا تحت ستار الظلام ، لأن كل من يرد عليه قوم سيئو السمعة ، فيجب على من يريد أن يستمتع باللذة فيه أن يختلسها بعد أن ينام الخلق تحت ستر الليل الذى يغطى الصبابات ، ويصف الخليج وقد بسطت عليه السرج ، أى المصابيح كأنها الدنانير التى لا يصل اليها احد ، بينما امتد الخليج وامتدت المبانى حوله لتقوم بدور خدمة الزائرين ، ثم يتحسر الشاعر على ما جناه هنالك من دوح أثمر

---

(٢٣) النفح ٣٤٩/٢

الأثام والذنوب . وقد عقب المقريزى على هذه الأبيات بأن فيها تحاملا كثيرا من ابن سعيد على هذا المكان وناسه الا ان المقرى يقول : « ومن نظر بعين الانصاف علم ان التحامل فى نسبة التحامل اليه »(٢٤) . يقول ابن سعيد :

« لا تركبن فى خليج مصر	الا اذا اسدل الظلام
فقد علمت الذى عليه	من عالم كلهم طغام
صفان للحرب قد أطلا	سلاح ما بينهم كلام
يا سيدى لا تسر اليه	الا اذا هوم النيام
والليل ستر على التصابى	عليه من فضله لثام
والسرج قد مددت عليه	منها دنانير لا ترام
وهو قد امتد والمبانى	عليه فى خدمة قيام
لله كم دوحة جنينا	هناك اثمارها الأثام »(٢٥)

ومع ذلك ، فليس السكر والعربدة وحدهما هما اللذان قد استرعيا نظر ابن سعيد وانما الطبيعة أيضا حول جانبى النهر والخليج ، حيث الكتان ينظر الى النهر باجفان لها أحداق ، فقد رأت النيل سيفا اثرت فيه ريح الصبا ، فقابلت ما به من وجد باحداق يبدو فيها الأرق من شدة الهوى ، ومن ثم يدعو الشاعر صاحبه أن يزورها بعد أن أصبحت فى يد الأرواح ، ويصور هذه الأحداق وقد تحولت الى حلق فوق حلق ، ولعله يقصد انعكاسها على صفحة ماء الخليج ، والزيارة المزمعة هذه قد تكون عندما يصطبح وجه الأرض ، أى يشرب الصبوح من خمر النيل ، أو عندما يصفر ، أى فى الغروب حيث الغبوق . وغنى عن الذكر أن نشير الى ما فى كل هذه الصور من تشخيص بث الحياة الانسانية فى النهر

---

(٢٤) النفح ٣٤٩/٢
(٢٥) النفح ٣٤٩/٢

والكتان حيث له أجفان وأحداق ، والأرض حيث لها وجه ، وجعل كل ذلك يتحرك ويشرب وينتشى من خمرة النيل ، وخلق علاقة عاطفية بين النهر وأحداق الكتان الأرق لكى يكمل عناصر هذه اللوحة الحية التى رسمت بدقة ثم بث الشاعر فيها الحركة والعاطفة :

« انظر الى النهر والكتان يرمقه ... من جانبيه باجفان لها حدق
راته سيفا عليه للصبا شطب ... فقابلته باحداق بها أرق
واصبحت فى يد الأرواح تنسجها ... حتى غدت حلقا من فوقها حلق
فقم فزرها ووجه الأرض مصطبح ... أو عند صفرتهان كنتتغتبق»(٢٦)

* * *

٥ ـ جزيرة الروضة :

لقد حظيت جزيرة الروضة من ابن سعيد أيضا بالاهتمام ، وكانت تعرف بالجزيرة الصالحة وهو اسم يصرح به المقرى فى تقديمه لأبيات ابن سعيد وكذلك ابن سعيد نفسه فى ابياته التى يدعو فى أولها الناظر الى تأمل حسن الصالحية حين تبدو مناظرها مثل النجوم المتلألئة فى السماء ، ويدعو كذلك الى تأمل جمال القلعة الغراء التى تبدو كأنها البدر الطالع وكأنما تفجرت به المياه فبدأ هلالا وسط الماء · ويتوقف الشاعر مليا عند وفاء النيل ووصول مائه الى الجزيرة او الى القلعة ·· كأنما هو زائر محب يروم الوصل ، ومن ثم نرى صورا تجسيدية حية فيها عناق وشوق فالنيل من فرط شوقه لجمال الجزيرة يعانقها فيمد يمينه نحوها وشماله ، انه يجرى اليها وقد أتى بالسعد ليخط به حولها علامات تدل على زيارته هذه وعلى عشقه لها :

---

(٢٦) النفح ٢/٣٤٧

« تأمل لحسن الصالحية اذ بدت مناظرها مثل النجـــوم تـــلالا
وللقلعـــة الغراء كالبـــدر طالعـــا تفجر صـــدر المـــاء عنـــه هـــلالا
ووافى اليها النيـــل من بعد غاية كما زار مشغوف يروم وصـــالا
وعانقها من فرط شـــوق بحسنها فمـــد يمينـــا نحـــوها شـــمالا
جرى قادما بالسعد فاختط حولها من السعد اعلاما بذلك دالا »(٢٧)

ولابن سعيد ايضا أبيات أخرى يقف فيها عند سور الجزيرة فى ظلام الليل ليصف ألوانا شتى وصورا عجيبة ، فالبدر يقبل ثغر سور الجزيرة ، والأنوار تتضاحك فى جنباته ، ومن ثم تظهر العجائب على سطح النيل ، فأحيانا يبدو مفضضا فى جانب ، واحيانا أخرى مذهبا فى جانب آخر . ولشد ما يعجب ابن سعيد بهذا المنظر فيخرج عن وقاره ويطرب من هذا الشـــعر :

« انظر الى سور الجزيرة فى الدجى والبدر يلثم منه ثغرا اشـــــنبا
تتضـــاحك الأنوار فى جنبـــــاته فتريك فوق النيـــل أمرا معجبـــا
بينا تراه مفضضـــا فى جـــــانب أبصرت منـــه فى ســـواه مذهبـــا
لله مرأى ما رآه ناظـــــــــرى الا خلعت له المقام تطربا »(٢٨)

واذا كان ابن ســـعيد مولعا بجمال جزيرة الروضـــة بهذه الطريقة فيما كتب من شعر فانه كان مولعا بها فيما كتب من نثر ، بل أنه ليرجع جمال الفسطاط والعناية بها الى قربها من الجزيرة الصالحية ومجاورتها لهـــا ، وهو يفضـــل الفسطاط على القاهرة ويلخص المقرى حديثه عن الروضه وموقعها وتاريخها فيقول : « وقال ابن ســـعيد المذكور فى « المغرب من حلى المغرب » ما ملخصه : الروضة أمام الفسطاط فيما بينها وبين

(٢٧) النفح ٢٦٩/٢ ، ٢٧٠
(٢٨) النفح ٣٤٤/٢

مناظر الجيزة ، وبها مقياس النيل ، وكانت متنزها لأهل مصر ، فاختارها الملك الصالح ابن الملك الكامل سريرا لسلطنته ، وبنى فيها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء عالى السمك لم تر عينى احسن منه ، وفى هذه الجزيرة كان الهودج الذى بناه الخليفة الآمر لزوجته البدوية التى هام فى حبها ، والمختار بستان الاخشيد وقصره وله ذكر فى شعر تميم بن المعز وغيره »(٢٩) • ثم يذكر قول شاعر مصرى ــ هو ابو الفتح ابن قادوس الدمياطى ــ فى هذه الجزيرة :

ارى سرج الجزيرة من بعيد كأحداق تغازل فى المغازل
كأن مجرة الجوزاء خطت وأثبتت المنازل فى المنازل »(٢٩)

وهكذا كان ابن سعيد من شدة اعجابه بالفسطاط والروضة يبيت بعض الليالى فى الفسطاط يتأمل حسن البدر على صفحة النيل مع سور الجزيرة ، وهو ما اشار اليه فى الأبيات السابقة : « انظر الى سور الجزيرة فى الدجى ••• الخ » ولم يكن ابن سعيد وحده هو الذى فتن بسحر الجزيرة فابن مماتى يقول فيها :

جزيرة مصر لا عدتك مسرة ولا زالت اللذات فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن قامة يميت ويحيى هجرها ووصالها
مغانيك فوق النيل اضحت هوادجا ومختلفات الموج فيك حبالها
ومن أعجب الأشياء انك جنة تمد على اهل الضلال ظلالها(٣٠)

---

(٢٩) النفح ٣٤٣/٢

(٣٠) هو ابو المكارم الخطير الاسعد بن الخطير المعروف بابن مماتى (ــ ٦٠٦) كان ناظر الدواوين بالديار المصرية ، حظيا عند القاضى الفاضل (راجع ترجمته فى الجزيرة ١٠٠/١ قسم مصر ، ومعجم الأدباء ١٠٠/٦ ووفيات الأعيان ١٨٧/١) النص والتعريف بالشاعر عن د• احسان عباس والمقرى ٣٦/١

ويعقب المقرى على البيت الأخير بقوله « ولعله اراد بأهل الضلال اليهود والنصارى المستولين اذ ذاك على الدولة »(٣١) • ومن الواضح أن الأبيات تتحدث عن اللذات والمسرات المتصلة والتى يدعو الشاعر أن تظل متصلة فى الجزيرة ، حيث الشمس ذات الهجر والوصال اللذين يحييان ويميتان ، وحيث المنازل التى تحولت الى هوادج وأماكن للهو •

والهودج الذى أشرنا اليه هو من متنزهات الخلفاء الفاطميين ويحكى لنا ابن سعيد فيما رواه المقرى من قصة بناء الخليفة الآمر بأحكام الله له يقول « ان الآمر كان قد بلى بعشق الجوارى العربيات ، وصارت له عيون فى البوادى ، فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب وأظرفهم ، شاعرة جميلة ، فيقال : انه تزيا بزى بداة الأعراب ، وكان يجول فى الأحياء الى أن أنتهى الى حيها ، وبات هنالك ، وتحيل حتى عاينها هناك ، فما ملك صبره ، ورجع الى مقر ملكه وأرسل الى أهلها يخطبها ، وتزوجها فلما وصلت اليه صعب عليها مفارقة ما اعتادت ، وأحبت أن تسرح طرفها فى الفضاء ، ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة ، فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج ، وكان غريب الشكل على شط النيل •• »(٣٢) •

* * *

٦ ـ القاهرة :

اذا كنا قد استفضنا فى الحديث عن الفسطاط وما يتصل بها من جزيرة الروضة وما يقع بينها وبين القاهرة كالخليج ، وأخرنا الحديث عن القاهرة فذلك لأنها مدينة حديثة عن الفسطاط ، بناها الفاطميون وتفتنوا فى بنائها واتخذوها مقرا لخلافتهم • وقد جاء تأخيرنا لها بسبب

---

(٣١) النفح ٣٦/١

(٣٢) النفح ٢٩٠/٢ ، ٢٩١

تأخر منزلتها فى نفس ابن سعيد ولقلة الشعر الذى قيل فى مدحها ، ومع ذلك فهى مدينة عظيمة مع أن ابن سعيد يرى أن اسمها أعظم منها فقد سميت القاهرة لانها تقهر من شذ عنها ورام مخالفتها . وعلى الرغم من ذلك فهو يعترف بهمة السلاطين الظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة ، ويتحدث عن ايوان بنى فيها على نمط ايوان كسرى بالمدائن ، وكان يجلس فيه الخلفاء ويصف المبانى العظيمة التى بنيت على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة والطاقات الكلسية فى حيطان قصورهم التى تبيض كل عام . وعلى الرغم من أن هنـاك أماكن متسعة مثل المكان المعروف بين القصرين الا أن القاهرة – فى نظر ابن سعيد – فيما عدا ذلك ضيقة ، وليس هناك أسوأ منها ، أو لأن ابن سعيد لم يراسو أمنهـا فى بلاد المغرب ، يقول بعد أن يذكر منطقة بين القصرين : « ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك أمد قليل ، ثم تسير منه الى أمد ضيق ، وتمر فى ممر كدر حرج بين الدكاكين ، اذا ازدحمت فيه الخيل مع الرحالة كان مما تضيق به الصدور ، وتسخن منه العيون ... وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء ، والضوء بينها ، ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا فى ذلك ، ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدرى ، وندركنى وحشة عظيمة ، حتى أخرج الى بين القصرين »(٣٣) .

وقد سجل ابن سعيد رأيه هذا شعرا فهو لا يستريح بالقاهرة ، ولما الح عليه أصحابه ليعود اليها رد قائلا :

« يقولون سافر الى القاهرة　　ومالى بها راحة ظاهرة
زحام وضيق وكرب وما　　تثير بها أرجل « سائرة »(٣٤)

---

(٣٣) النفح ٣٤٥/٢ ، ٣٤٦

(٣٤) النفح ٣٤٦/٢

ولكن اذا كانت هذه الأشياء التى لا تعجب أحدا قد أثارت سخط ابن سعيد وجعلته يضيق ذرعا بالقاهرة فانه قد مدح بعض الأماكن التى راى فيها متنفسا من هذا الكدر كأرض الطبالة التى سبق ان ذكرناها والخليج الذى خصصناه أيضا بالتناول من قبل . والى جانب هذين المكانين اعجب ابن سعيد ببركة الفيل التى احاطت بها المناظر البديعة ، وراح مرة بالليل واخرى بالنهار ، ففى الليل تراها مستديرة كالقمر البدر « والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرح أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم ، فيكون لها بذلك منظر عجيب ، وفى ذلك قيل :

« انظر الى بركة الفيل التى اكتنفت	بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هى والأبصار ترمقها	كواكب قد أداروها على القمر »(٣٥)

وحينما يراها بالنهار وقد سطعت فيها الشمس فى الغدو تبقى عينه مجنونة بحبها وحسنها ، تهيم بها وجدا :

انظر الى بركة الفيل التى فجرت	لها الغزالة فجرا من مطالعها
وخل طرفك مجنونا ببهجتها	يهيم وجدا وحبا فى بدائعها »

ومما اعجبه أيضا فيها الأزهار لأنها غير منقطعة الاتصال ، ومن ثم فهو يرى أن مصر تفضل غيرها من البلدان فى هذا الأمر ، وقد ذكر ابن سعيد لنفسه شعرا فى النرجس والورد قال فيه :

« من فضل النرجس وهو الذى	يرضى بحكم الورد اذ يراس
اما ترى الورد غدا قاعدا	وقام فى خدمته النرجس »(٣٦)

---

(٣٥) النفح ٣٤٧/٢

(٣٦) النفح ٣٤٨/٢

والى جانب بركة الفيل هناك بركة اخرى يذكرها ابو الصلت امية ابن عبد العزيز الاندلسى هى بركة الحبش التى قصدها مع رفقة له ساعة الغبش لكى يصطبحوا فيها » وحلوا منها روضا بسم زهره ، ونسم عطره ، فاداروا كئوسا ، تطلع من المدام شموسا ، وعاينوها نجوما ، تكون لشياطين الهموم رجوما ، فطرب حتى أظهر الطرب نشاطه ، وابرز ابتهاجه وانبساطه ، فقال :

« لله يومى ببركة الحبش	والجو بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب	كصارم فى يمين مرتعش
ونحن فى روضة مفوفة	دبج بالنور عطفها ووشى
قد نسجتها يد الغمام لنا	فنحن من نورها على فرش
فعاطنى الراح ان تاركها	من سورة الهم غير منتعش
واسقنى بالكبار مترعة	فهن أروى لشدة العطش
فاثقل الناس كلهم رجل	دعاه داعى الصبا فلم يطش »(٣٧)

وهكذا يصور ابو الصلت يوما قضاه فى هذا المكان بين متعة واستمتاع ، وهنا نجده حريصا على تصوير المكان والزمان بدقة ، فالمكان بركة الحبش ، والزمان بين الضياء والغبش ، ولعله انسب وقت للصبوح ، ولابد من عناصر مصرية ثلاثة : النيل والروضة والراح ، فالنيل تتموج صفحة مائه على اثر الرياح ، ولكن هذه الحركة لا تبقى عند حد المباشرة فى الصورة وانما تكتمل بالتشبيه ، فماء النيل اللامع المضطرب يبدو كسيف لامع صارم ، فى يد انسان لا يجيد النزال ولذا فهو يرتعش ، أما الروضة فكثيرة الظلال والأنوار التى وشتها وحلت جوانبها وحواشيها ، وهذه الأنوار المضيئة ليست أنوارا على الحقيقة ، وانما هى النور الأبيض ، وهذه الروضة نسجتها يد الغمام لكى يستمتع

---

(٣٧) النفح ٣٢٢/٢ ، ٣٢٣

بها الشاعر ورفاقه ، وكأنهم يفترشـون نورها . أما الراح – وهى قاسم مشترك بين الشعر الأندلسى والشعر المصرى – فهى التى تذهب الهم ، ومن يتركها لا ينتعش أبدا من سورته ولذا يلوذ بها الشـاعر ويشرب بالكئوس المليئة كى يروى شـديد عطشـه ، ويختم الشـاعر أبياته بما يشبه الحكمة التى تحث على تلبية داعى الصبا والطيش والاستمتاع بملذات الحياة .

وأبو الصلت أمية من كبراء أدباء الأندلس العلماء الحكماء – كما يصفه المقرى(٣٨) – وله فى مصر أيضا وصف الرصد الذى بظاهر مصر :

« يا نزهة الرصد اللائىقد اشتملت	من كل شىء حلا فى جانب الوادى
فذا غدير ، وذا روض ، وذا جبـل	والضب والنون والملاح والحادى »(٣٩)

ولأبى الصلت – الى جانب هذا – قصائد فى وصف المنازل والمبانـى والقصور البديعة ، ومن ذلك وصفه لقصر يسمى « منزل العز » يقـال : ان الذى بناه هـو حسن بن على (بن يحيى) بن تميم بن المعـز العبيدى(٤٠) ، وفى بداية القصيدة يتخذ الشـاعر من اسم القصر مجالا للتلاعب بمعناه ، فالقصر يسمى منزل العز ، واسمه – اذن – كمعناه ، ويتخذ من هذا مناسبة للدعاء لمن سماه بهذا الاسـم الا يجاوزه العـز

---

(٣٨) النفح ٣٢٣/٣ ، وانظر هامش احسان عباس المشار اليـه سـابقا فى النفح ٤٩٦/١

(٣٩) النفح ٤٩٨/١

(٤٠) يشك احسان عباس فى هذا الاسم ، ويظن أن الوصف لقصر بناه أحد العبيـديين بمصر . أما الشـاعر تميم بن المعز فليس له أبناء لانه كان عقيما . انظر الهامش : النفح : ٤٩٦/١ ، وكذلك الحلة السيراء ٢٩١/١

ابدا ، ثم يبين كيف أن المنازل تغار منه ومن شموخه،بل انها لتود لو كانت مكانه ، ثم يدعو الشـاعر من يوجه اليـه الخطاب ان يتأمله ليرى حسنه الذى انفرد به دون غيره من القصور ، ويبدأ بعد ذلك فى وصف الذهب السائل فى سقفه ، فالسقف مطعم بالذهب ، أما أرضـه فيبدو أنها بيضاء لامعة كالمرآة ، ولذا يصورها وكأن بها مياها متجمدة ، ثم ينتقل الى الصور المرسومة أو المحفورة والمنقوشـة أو البارزة ليتناولها على طريقة البحترى فى وصف ايوان كسرى ، فالقصر قد تحول الى سـاحة قتال وطراد ، والخيل دائرة فى المعركة ، التى نرى فيها الفارس المدجج بالسلاح ، ومع أنه فارس محارب الا أن قناته أو رمحه ليس عليهما دم من أثر الطعان ، وكأن الشاعر قد تنبه الى أنها مجرد تماثيل . أما ضارب النبـل ومطلقها فهو يشـد على قوسـه ويطلق نبله فتسـقط الأسهم بعيدا عن قرنه ، بينما تبرز هذه التماثيل أو اللوحات المنقوشـة صـفوفا من الوحوش والطيور البديعة ، ويلمح الشـاعر سكونها جميعا مع أنك تخالها متحركة ، ثم يرى بين جمال هذا الفن وجمال المحبوب وجـوه شبه ، ويبدو أنه يعقد الشبه المباشر بين حديقة القصر وما بها من أزهار وبين صفات المحبوب وملامحه ، فوجه الحبيب فى جماله يشبه الورود والأزهار ، فالوجنتان كالورد ، والعينان كالنرجس الفتان ، والعارضان الآس والريحان ، وطيب المحبوب ولونه الكافور والمسك ملازمان له فى الليل والنهار .. ويرى الشـاعر فى حسـن هذا القصر ومناظره ما يذكره بفترة الصبا . وليست هذه الصـور بتفاصيلها جديدة فى تراثنا العربى ، ولو أن الشـاعر قد يكون حساسا لتوزيع الأزهار والألوان والأضـواء بين الورد والنرجس والآس أو الريحان ، ثم له أيضـا ذلك التجمـع بين الرائحة واللون وجعلهما من أصـل واحـد ، فالكافور والمسـك فى طيب المحبوب ولونه :

« منزل العز كاسمه معنـاه لا عدا العز من به سـماه
منزل ودت المنازل فى أعـ ـلى ذراه لو صيرت اياه

فأجل فيه لحظ عينيك تبصر ... أى حسن دون القصور حواه
سال فى سقفه النضار ولكن ... جمدت فى قراره الأمواه
وبأرجائه مجال طراد ... ليس تنفك من وغى خيلاه
تبصر الفارس المدجج فيه ... ليس تدمى من الطعان قناه
وترى النابل المواصل للنز ... ع بعيدا من قرنه مرماه
وصفوفا من الوحوش وطير الـ ... ـجو كل مستحسن مرآه
سكنات تخالها حركات ... واختلاف كانه اشباه
كمحيا الحبيب حرفا بحرف ... ما تعدى صفاته اذ حكاه
ورده وجنتاه ، نرجسه الفتـ ... ـان عيناه ، آسه عارضاه
وكأن الكافور والمسك فى الطيـ ... ـب وفى اللون صبحه ومساه
منظر يبعث السرور ومرأى ... يذكر المرء طيب عصر صباه »(٤١)

ويبدو أن ابا الصلت أمية قد شغف بوصف الأبنية ، فها هو يصف بناء بناه على بن تميم بن المعز العبيدى ، فيتحدث عن ارتفاع قبابه وشموخها ، فكأن هذا البناء اسس ووطد فوق السماك يكاد يصل الى نجوم المجرة . وفى هذا القصر تكثر الجوارى الحسان كانهن الجوارى الكنس اللاتى ذكرهن القرآن الكريم ، يبدو أن به نهرا أو بحيرة نوشك أن نلمحها اذا فسرنا كلمة الجوارى الأولى بالسفن ، وهو قصر تكثر فيه الأضواء المتقابلة حتى ليبدو ليله نهارا مشمسا ، وتحت سمائه نرى عطف حناياه ، ويشبه الشاعر هذه الأقواس فى القصر بالأهلة والحواجب والقسى التى تستخدم فى النبل ، اما الأعمدة الرخامية فعالية شامخة ، يحيط بها جمال أجمل من أزهار الربيع وانفس ، لان نسيمه من نسيم وعطر القدود الهيفاء ، وأرضه الملساء من نعومة الخدود الملساء . وهذا القصر لشموخه وعظمه يبدو وكالفلك ولذا يحار فيه المنجمون ويقصر

(٤١) النفح ٤٩٦/١ ، ٤٩٧

عنـه المهندسـون ، ومن ثم فان جماله يسر الناظر اليه ، والراحة فيه وطيب العيش موفوران ، ولهذا يرى الشـاعر انه خير معرس . ثم يتوجه بالخطاب الى صاحب القصر الذى يطلع بقصره قمرا منيرا حينما تطلع شمس الخدور — يقصـد جوارى القصر وحريمه — شـمس الأكؤس ، ويقصد بها الخمر الصهباء ، ويرى الشاعر ممدوحه أعلى منزلة من كل الناس ، ومجلسه ارفع وأسمى من كل ما على الأرض من ابنية وعمائر :

« لله مجلسـك المنيف قبابه — بموطـد فوق السماك مؤسس
موف على حبك المجرة تلتقى — فيه الجوارى بالجوارى الكنـس
تتقابل الأنوار من جنبـاته — فالليل فيـه كالنهار المشـمس
عطفت حناياه دوين سـمائه — عطف الأهلة والحواجب والقسى
واستشرفت عمد الرخام وظوهرت — باجل من زهر الربيع وانفـس
فهواؤه من كل قـد اهيـف — وقراره من كل خـد املـس
فلك تحير فيـه كل منجم — واقر بالتقصير كل مهنـدس
فبدا للحظ العين أحسن منظر — وغدا لطيب العيش خير معرس
فاطلع به قمـرا اذا ما اطلعت — شمس الخدور عليك شمس الأكؤس
فالناس اجمع دون قدرك رتبـة — والأرض أجمع دون هذا المجلس »(٤١)

＊ ＊ ＊

٧ — الأهـرام :

اذا كان أبو الصلت امية قد اهتم هذا الاهتمام بالمبانى والقصور فان الأولى به ان يتحدث عن أضخم بناء فى مصر والعالم القديم ، واذا كان ما دفعه الى وصف تلك القصور هو المدح فان ما يدفعه الى وصف

---

(٤١) النفح ١/٤٩٧ .

الأهرام هو جلال البناء وجمال هندسته وفخامتـه ، وربما كان ذلك راجعا أيضا الى المناظرة التى قامت بينه وبين الشاعر المصرى ظـافر الحداد ، كما يروى المقرى عن « بدائع البدائه » ان جماعة من الشعراء فى أيام الافضل خرجوا متنزهين الى الأهرام ليروا عجائب مبانيها ، ويتأملوا ما سطره الدهر من العبر فيها ، فاقترح بعض من كان معهم العمل فيها ، فصنع أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى :

بعيشك هل ابصرت اعجب منظرا   على ما رأت عيناك من هرمى مصر
اناقا باعنان الســماء فأشرفا   على الجو اشراف السماك او النسر
وقد وافيا نشزا من الأرض عاليـا   كأنهما نهدان قاما على صدر (٤٢)

وصنع ابو منصور ظافر الحداد :

تأمل هيئـة الهرمين وانظـر   وبينهما ابو الهـول العجيب
كعمـاريتين على رحيـل   بمحبوبين بينهمـا رقيـب
وفيض البحر عندهما دمـوع   وصـوت الريح بينهما نحيـب
وظاهر سـجن يوسـف مثل صـب   تخلف فهو محزون كئيب »(٤٣)

---

(٤٢) أورد المقرى هذه الأبيات مرة أخرى فى النفح ١/٤٩٨ مع اختلاف فى بعض الكلمات والعبارات ، فمثلا كلمة « أعجب » تحـل محلها « أحسن » وعبارة « على ما رات عيناك » تستبدل بـ « على طول ما عاينت » ، « فأشرفا » تصير و « وأشرفا » بالواو ، و « نهدان » تحل محلها « ثديان » .

(٤٣) نص المقطوعتين معا فى النفح ٣/٢٣٢

وكذلك ترد مقطوعة ظافر الحداد فى :

ديوان ظافر الحداد ، ابن الاسكندرية ، تحقيق د. حسين نصار .

والأبيات الأولى تدل على موقف الوافد على مصر حينما يرى الهرمين فيعجب من منظرهما لأنه لم ير أعجب من ذلك فيما رأى فى حياته ، فهما قد وصلا الى اسباب السماء فى ارتفاعهما ، واشبها السماك أو النسر الطائر فى الهواء وهو يحلق عاليا ، وهما الى جانب ذلك قد صادفا مكانا عاليا مرتفعا اقيما عليه ، ويشبههما فى هذا الارتفاع تشبيها حسيا بثديين أو نهدين على صدر امراة ، وكأنه فى هذا يستدعى حسن هذا المكان وسحره ٠

أما ظافر الحداد وهو شاعر مصرى فيعجب من عظمة هذه الحضارة التى تتجلى فى صورة الهرمين وابى الهول العجيب بينهما ، ويشبههما بهودجين على رحل جمل مسافر بمحبوبين ، هما الهرمان دون أدنى شك ، ولكنه يجعل من أبى الهول بينهما ذلك الرقيب العاذل بين المحبوبين ٠ أما ماء النيل الذى يجرى اسفل بعيدا عن هذا المكان فهو دموع يذرفها للأحباء ، ونوت الريح التى تدوى بينهما هى نحيبهما ، وهكذا نرى شعر ظافر مليئا بالتصوير الفنى والمشاعر والأحاسيس مستوحيا التراث العربى القديم وملبسا الجمادات مشاعر الانسان ، وبهذا استطاع أن يبث فى الصورة قدرا كبيرا من الحيوية على عكس أبى الصلت أمية الذى لا يعدو شعره نظما فاترا باردا فيه المباشرة أو التشبيه الخارجى

=

مكتبة مصر ١٩٦٩ ٠ المقطوعة ٤ ص ٤ ـ وفيه يرد البيت الثالث على هذا النحو :

وماء النيل تحتهما دموع   وصوت الريح بينهما نحيب

ولعله أوفق فى التعبير حيث يذكر ماء النيل تحتهما وليس فيض البحر عندهما نظرا لبعد النيل وانخفاضه عن هضبة الأهرام ٠ وهو ما يتفق مع قول مناظره فى البيت الأخير « وقد وافيا نشزا من الأرض عاليا ٠٠٠» ٠

المـادى الذى لا يصل الى أعماق النفس • وقد أضاف ظافر الحداد كذلك صورة سجن يوسف كصب خلفه أحبابه وتركوه فبدا محزونا كئيبا ، ولا ندرى هل أراد بذلك أبا الهول أم الهرمين وتكون الصورة بهذا استكمالا للدموع التى يذرفها الهرمـان والنحيب الذى يصـدر عنهمـا أو عن الريح •

اذا كنا قد تلمسنا فى هذا القسم صورة مصر بكل جوانبها كما صورها الشعراء ، وكما تناولوا هذه الجزئيات منفصلا بعضها عن بعض فى أغلب الأحيان ، فها هو الصفدى(٤٤) يعطينا صورة كلية فى ابيات له يبدؤها بالدعاء لمصر بالسقيا لما فيها من مجالس أنس ولحسن عشرة أهلها ، ثم يذكر كافة صنوف الجمال فيها على النحو التالى :

« سقيا لمصر وما حـوت ... من انسها وأناسـها
ومحاسن فى مقسـها ... تبدو وفى مقياسـها
ومسرة كاسـاتها ... تجلى على أكياسـها
وسطور قرط خطها البا ... رى على قرطاسـها
ودمى كنائسـها ، ولا ... تنسى ظباء كناسـها
ولطافـة بجـلالة ... تبـدو على جلاسـها
ونواسـم كل المنـى ... للنفـس فى أنفاسـها
ومـراكب لعبت بهـا الأ ... مواج فى وسواسها »(٤٥)

***

(٤٤) (خليل بن أبيك الصفدى (ــ ٧٤) صاحب الوافى بالوفيات واعيان العصر ونكت الهميان والتذكرة الصفدية والغيث المسجم وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة (انظر ترجمته فى الدرر الكامنة ٨٧/٢ ، وطبقات الشافعية ٦ : ٩٤) وشعره منثور فى مؤلفاته) هامش احسان عباس • النفح ٣٨/١

(٤٥) النفح٣٨/١ •

ثانيا : تصوير العواطف

اذا تأملنا هذه المجموعة التى بين أيدينا من الشعراء نستطيع أن نلمح تضاربا فى العواطف ازاء مصر بين المدح والذم والاحساس بالغربة فيها والحنين الى الأندلس أو الى مسقط رأس الشاعر ، وفى بعض الأحيان ، الحنين الى مصر نفسها اثناء البعد عنها ، وفى التفضيل ، قد تفضل مصر على غيرها وقد يفضل غيرها عليها .

١ ـ الغربة والحنين الى الأندلس :

لا شك ان أول شعور يخالج الانسان الذى يترك بلده لدى وصوله الى بلد آخر هو شعور بالغربة والوحشة فى هذا المكان الجديد ، ولا بد أن يمتزج هذا الشعور بحنين جارف الى الوطن وملاعب صباه فيه ، وها هو ابن سعيد يصارحنا بهذا ، ويدعم كلامه بقصيدة طويلة ، يقول المقرى : « قال رحمه الله تعالى : ولما قدمت مصر والقاهرة أدركتنى فيهما وحشة ، واثار لى تذكر ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواضع المبهجة التى قطعت بها العيش غضا خصيبا ، وصحبت بها الزمان غلاما ولبست الشباب قشيبا ، فقلت :

هذه مصر فاين المغرب — مذ نأى عنى دموعى تسكب

فارقته النفس جهلا انما — يعرف الشىء اذا ما يذهب . الخ »(١)

هكذا يبدأ قصيدته فور وصوله الى مصر بالسؤال عن المغرب ، وهو سؤال يحمل فى طياته الاحساس بالوحشة فى مصر والحنين الى الموطن

---

(١) النفح ٢/٣٨١

وفيه كذلك معنى الحسرة والاحساس بالبعد عن المغرب والتمنى أن يعود اليه ، وكأن المغرب هو الذي بعد عن الشاعر : « مذ نأى عنى » ، ومنذ ذلك الحين وعيناه تسكبان الدمع ، فهو متصل البكاء لفراق وطنه ، ثم يعترف بأنه فارق وطنه جهلا بقدره آنذاك ، ولكنه الآن يعرف قيمته وقدره ، وهكذا يعرف الانسـان قدر كل شيء اذا ذهب عنه ، وبعد أن يقول ذلك فيما يشبه الحكمة يسـأل عن حمص - كما سـأل عن المغرب - وحمص هنا هى اشبيلية التى يتحسر الشـاعر على أيامه بها ، لأنه لم يصادف لذة ولا شيئا يعجبه بعدها ، ويذكر ملذاته بها حيث يطربه خرير النهر وشدو حمام الايك . يتحسر على تلك الحياة الطيبة الهانئة بها ، ويذكر المرج ولذاته التى ما بعدها لذة والنواعير التى تذكره بألم الفراق الذى لا يفارق مهجته ، وهكذا حتى ينظم فى هذه المدينـة معانى الآية القرآنية الكريمة ، « بلدة طيبة ورب غفور » ، ولهذا فهو يتمنى لو أنه ما زال يذنب فيها :

« أين حمص ؟ أين أيامى بهـا	بعدها لم الق شـيئا يعجب
كم تقضى لى بها من لـذة	حيث للنهر خرير مطـرب
وحمام الأيك تشـدو حولنـا	والمثـانى فى ذراها تصـخب
أى عيش قد قطعناه بهـا	ذكره من كل نعمى أطيب
ولكم بالمرج لى من لـذة	بعدها ما العيش عندى يعذب
والنواعـير التى تذكارهـا	بالنوى عن مهجتى لاتسلب
. . . .	. . . .
بلدة طابت ورب غافـر	ليتنى مازلت فيهـا أذنب »(٢)

والشاعر فى هذه القصيدة الطويلة التى بداها بالحنين الى المغرب

---

(٢) النفح ٢٨١/٢

والاندلس وخص بالحديث حمصا أو اشبيلية ، وذكر أيام لهوه بها ومروجها ونواعيرها ، يحلو له الى جانب ذلك أن يعقد مقارنة بين النيل ونهر اشبيلية ، نهر الوادى الكبير ، وكل جمال رآه الشاعر فى النيل يصغر فى عينيه أمام هذه الذكرى وهذا الحنين الجارف الى ذلك النهر ذى النغمات التى تطرب والزوارق التى تحملها الأقمار ـ يقصد الجوارى الحسان ـ التى تسقيه ، والكئوس التى يشربها ، ويصف الشاعر كل هذا الحسن وكيف ركب هذه الزوارق واستمتع بها :

« اين حسن النيل من نهر بها ... كل نغمات لديه تطرب
كم به من زورق قد حله ... قمر ساق وعود يضرب
لذة الناظر والسمع على ... شم زهر وكؤوس تشرب
كم ركبناها ولم تجمح بنا ... ولكم من جامح اذ يركب ... »(٣)

ثم يذكر الجزيرة الخضراء ويتحسر عليها وعلى ليله فيها مع حبيبه ، والمدام ، والبحر الذى يشبه الثوب الأزرق ، ويحن الشاعر الى أشجار الحور والى نهر شنيل ، ويذكر ما كان فيه من حسان وحور عين وغناء ، ثم يهفو شوقا الى ما لقة وأبراجها وأشجارها العاشقة ، ويبكى على مرسية دما ، لما تركه فيها من نعيم معشب وشمس طلعت فى ناظره ، ثم صارت فى فؤاده تغرب ، ويخلص من هذه الذكرى وهذا الحنين المعنى الى الوجه الآخر للعملة(٤) ، فهذه حاله هناك فى بلاده فى المغرب والأندلس ، أما حالته هنا فهى شى آخر على النقيض من ذلك كله ، ففكره متعب :

---

(٣) النفح ٢٨٢/٢

(٤) انظر الوجه الأول فى حنينه الى الاندلس فى : النفح ٢٨٢/٢ ، ٢٨٣

« هـذه حالى ، واما حالتـى فى ذرا مصر ففكر متعـب
سمعت اذنى محـالا ، ليتها لم تصدق ـ ويحها ـ من يكـذب

وكـذا الشىء اذا غاب انتهوا فيه وصـفا كى يميل الغيب
هـا أنا فيها فريد مهمـل وكلامى ولسـانى معـرب
وأرى الألحاظ تنبـو عندمـا اكتب الطرس افيـه عقـرب ؟
واذا احسـب فى الديوان لم يدر كتـابهم ما احسـب
وأنادى مغربيـا ، ليتنـى لم أكن للغرب يومـا انسب
نسب يشرك فيـه خامـل ونبيـه ، أين منـه المهـرب ؟
اترانى ليس لى جـد لـه شـهرة أو ليـس يدرى لى أب
سوف أثنى راجعـا لا غرنى بعـدما جربت برق خلب »(٥)

هكذا يعرض ابن سعيد حالته بفكره الذى يتعبه ، فهو يسـمع ما يكره ، ويتمنى لو أن اذنه لم تصدق هذا الكذب والافتراء ، والناس فى مصر لا يهتمون بما يكتب ولا يعرفون له قدره ، فهو فى مصر يعانى من الوحدة والاهمال مع أنه يتحدث العربية بلسـان فصيح معـرب ، والأكثر من ذلك انهم ينادونه بالمغربى ، وهو أمر جعله يتمنى عـدم الانتساب الى الغرب • ففى هـذا النداء تعميم ينطبق على كل مغربى لا تخصيص لابن سـعيد ، وفى التخصيص تكريم ومعرفة لقـدر الشخص • أما التعميم والمناداة بالنسب الى الموطن فيشترك فيه معـه الخامـل والنبيه والغبى والذكى • والشـاعر سـاخط اشـد السـخط وثائر اشـد الثورة على هـذا النداء الذى يريد الهرب منه ، ويرى فى ذلك غضا من حسبه ونسبه ، من شـهرة جده وابيه ، ويختتم الشاعر ابياته بقرار العودة الى بلاده ويدعـو ألا يغره برق « خلب » أو سراب مخـادع بعد هـذه التجربة وهى تجربة الرحلة الى مصر • واذا كان ابن سـعيد

---

(٥) النفح ٢٨٣/٢

يفخر بحسبه ونسبه ، فالحق أن أباه كان على أعمال الجزيرة ، وانه ناب عنه فيها « ومازج الأدباء ، ودون كثيرا من نظمه ، ودخل القاهرة ، فصنع له أدباؤها صنيعا فى ظاهرها »(٦) . وعلى الرغم من أن ابن سعيد كان يلتقى بالشعراء فى مصر ، ونعرف أنه « لقى بمصر أيدمر التركى والبهاء زهيرا وجمال الدين بن مطروح وابن يغمور وغيرهم »(٧) ، الا أنه كان يشعر بالخمول والنسيان ويشكو الوحشة التى أصابته فى مصر ، فها هو يتأمل الوجوه ولا يعرف منها وجها واحدا ، فهو تائه ضال بينهم ، غريب توحشت الحاظه فى عالم لا يشبهه فيه أحد ، ويأخذ الشاعر على نفسه عهدا أن يعرف حق وطنه اذا عاد اليه لأنه قد أضاع عمره كله فى الغربة :

« أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى	ما بينها وجها لمن أدريه
عودى على بدئى ضلالا بينهم	حتى كأنى من بقايا التيه
ويح الغريب توحشت ألحاظه	فى عالم ليسوا له بشبيه
ان عاد لى وطنى اعترفت بحقه	ان التغرب ضاع عمرى فيه »(٨)

وكما فضل الشاعر – فى بائيته الطويلة التى ذكرنا طرفا منها – نهر حمص على النيل ، فانه يعيد الكرة فى صورة أخرى يشتاق فيها الى حمص ونهرها حيث المناظر الخلابة كأنها النجوم التى تبدو فى السماء ، ويعقد مقارنة طريفة بين نيل مصر ونهر اشبيلية ، نهر الوادى الكبير ، فهو اذا سبح فيه لم يخش شيئا لأن التيار فيه هادىء ، وليست فيه تماسيح كنهر النيل :

---

(٦) النفح ٢٧١/٢
(٧) النفح ٢٧٢/٢
(٨) النفح ٢٦٢/٢

« يانيل مصر أين حمص ونهرها   حيث المناظر انجم تلتـــاح
فى كل شـــط للنواظر مسرح   تدعـــو اليه منازح وبطــاح
واذا سبحت فلست أسبح خائفا   ما فيه تيار ولا تمساح »(٩)

وليس ابن سعيد وحده هو مبتكر هذا المعنى وانما يشركه آخرون فقد قيل لأحد من رأى مصر والشــام : أيهما رأيت أحسن ؟ أهذان أم اشبيليه . فقال بعد تفضيل اشبيلية : شرفها غابة بلا أسد ، ونهرها نيل بلا تمساح(١٠) .

والتقليل من شأن النيل العظيم أمام نهر شنيل ـ ذلك النهر الصغير المسكين الذى يمر بغرناطة ـ يرد ايضا فى كلام لسان الدين بن الخطيب حيث يرى ان شنيل يســاوى ألف نيل ، يقول المقرى : « وفى بعض كلام لســان الدين ما صورته : وما لمصر تفخر بنيلها ، والف منه فى شنيلها ؟ يعنى أن الشين عنــد اهل المغرب عددها الف ، فقولنا شنيل اذا اعتبرنا عدد شينه كان الف نيــل ، انتهى »(١١) .

وكما فضلت حمص أيضا فضلت غرناطة ، ليس على مصر وحدها ، وانما على مصر والشــام والعراق ، وانما هى عروس تجلى ، وتلك البلدان صداقها ، وفى هــذا مبالغة ممجوجة تحمل معنى الســـخرية والتقليل من شــأن هذه البلدان باستحدام الاستفهام « ما » :

« غرناطة مالهــا نظـــير   ما مصر والشــام ما العــراق ؟
ما هى الا العروس تجلى   وتلك من جملة الصداق »(١٢)

---

(٩) النفح ٣٠٦/٢
(١٠) النفح ١٥٧/١
(١١) النفح ١٤٨/١
(١٢) النفح ١٤٨/١

وكما احس ابن سعيد بالغربة شعر بها أيضا الرحالة ابن جبير حين شهد العيد فى مدينة طنطا بعيدا عن أحبابه فقدم الدمع قربانا لهم على البعد : « وقال ، وقد شهد العيد بطينتة من قرى مصر :

شهدنا صلاة العيد فى أرض غربة | باحواز مصر والأحبة قد بانوا
فقلت لخلى فى النوى جد بمدمع | فليس لنا الا المدامع قربان »(١٣)

ولم يقتصر الاحساس بالغربة على الأندلسيين الوافدين على مصر ، وانما شاركهم فيه الشوام فالشيخ محب الدين الحموى فى ترجمة الشيخ اسماعيل النابلسى شيخ الاسلام من مصر ، يكتب اليه اطراء لا يخلو من حديث عن الغربة واشارة اليها ، فهو غريب بأقصى مصر ، وقد سكنها وأقام فيها ، ولكن قلبه معلق بالشام وجسمه قد اصابه التبريح ، ومن ثم فهو يتمنى ثرى بلاده والوصل بها :

« غريب بأقصى مصر اضحت دياره | ولكن قلبى بالشآم معلق
وقد نسخ التبريح جسمى فهل الى | غبارثرىاعتاب وصل يحقق»(١٤)

ويتبع هذين البيتين بأبيات يتمنى فيها الفوز بروضة فيها عيون النرجس وفيها الوادى والربوة والماء المعين الذى يتدفق حولها ، حيث يحلو له العيش ، ويعود اليه النعيم القديم وينظر الجامع المنفرد بصحنه وجماله . ولعله يشير الى المسجد الأموى فى دمشق ، وحوله اصحابه كالنجوم الزهر ، تتألق وجوههم بشرا وسعادة .

اما الخياط فقد ترك حبيبه بالشام وقصد مصر ، وبعدت به الشقة والمسافة . ومن هنا يتمنى الا تبعد مصر على العاشق :

---

(١٣) النفح ٤٩٢/٢
(١٤) النفح ٤٠٠/٢

« خلفت بالشام حبيبى وقد يممت مصرا لعنا طارق
والأرض قد طالت فلا تبعدى بالله يا مصر على العاشق »(١٥)

أما القاضى الفاضل فيظل فى مصر ظامئا الى ماء الفرات بالرغم من وجود النيل ، والقلب مشغول بالشام وان لم تجد عيناه بالدموع ، وقد ترك قلبه هناك محبوبات كثيرات ، ويرى أن صبره سيطول ، وسيكون صبرا جميلا ، ويصف الصبر بأنه جميل ليصنع هذه الاشارة التراثية بوضع الرمزين معا : جميل وبثينة :

« بالله قل للنيل عنى اننى لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فانه لى شاهد ان كان طرفى بالبكاء بخيلا ..
يا قلب كم خلفت ثم بثينة وأظن صبرك أن يكون جميلا »(١٦)

* * *

٣ ـ الحنين الى مصر فى الغربة :

ومثلما يحن الأندلسيون الى بلادهم ويشعرون بالوحشة والغربة فى مصر ، يحن المصريون الى موطنهم حين يهجرونه ، ويشاركهم هذا

---

(١٥) يقول د. احسان عباس فى تعليقه : « فى أمثالنا العامية بفلسطين : « مصر على المشتاق ما هى بعيدة » وفى البيت تلميح الى هذا المثل » النفح ٣٩٣/٢ . وفى أمثالنا العامية المصرية نقول : « مصر ماتبعدش على حبيب » . ونود أن ننبه الى أن المثل هنا يقصد بمصر القاهرة ، وذلك لطموح أبناء الأقاليم فى الذهاب الى القاهرة .
(١٦) النفح ٣٦/١

الحنين المغاربة والأندلسيون أنفسهم حين يبتعدون عن مصر ، ويبدو أن لها جاذبية وسحرا تشد بهما كل من ينأى عنها ٠ وها هو ابن نباته وهو بالشام يتشوق الى المقياس والنبل :

« ارق له بالشام نيل مدامع	يجريه ذكر منازل المقياس
سقيا لمصر منازلا معمورة	بنجوم أفق أو ظباء كناس
وطنى سهرت له وشابت لمتى	ونعم على عينى هواه وراسى
من لى به والحال ليس بآيس	كدر وعطف الدهر ليس بقاسى
والطرف يستجلى غزالا آنسا	بالنيل لم يعتد على باناس »(١٧)

فابن نباته يأرق بالشام فتجرى دموعه وتصير نيلا يتذكر المقياس ومنازله ، عندئذ يدعو الشاعر لمصر بالسقيا وبأن تظل منازلها معمورة بالنجوم والظباء ، أى بالرجال اللامعين والنساء الحسان ، يتذكر الشاعر وطنه الذى سهر له وشاب شعره من أجله وحبه كامن فى قلبه ، ويتمنى لو يصل اليه فى حال من الأمل لا اليأس ، والعطف من الدهر لا القسوة ليستمتع برؤية غزال آنس بالنيل على عكس ما فى باناس بسوريا ، وهنا يقصد محبوبه المصرى بهذا الغزال الآنس ابن النيل وابن هذه الأرض الطيبة ٠

أما أبو عبد الله محمد بن على بن عمر العبدرى التونسى الشاطبى الأصل فيخاطب أحبابه بمصر مؤكدا بكاءه عند أطراف النهار من أجلهم ، ويتساءل عما لو رأوا هذا البكاء أكانوا سيشفقون لفرط حبه ووجده ومعاناته بسبب بعده عن ديارهم :

---

(١٧) النفح ٤٠٧/١

« أحبتنا بمصر لورايتم بكائى عند أطراف النهار
أكنتم تشفقون لفرط وجدى وما ألقاه من بعد الديار »(١٨)

اذا كان هذا التونسى الشاطبى الأصل شاطبة Játiva بالأندلس يحب مصر هذا الحب فان المغاربة كذلك يحبونها ، كهذا المغربى ــ ولعله أندلسى ــ الذى كتب الى الملك الكامل معربا عن حبه لمصر ومكة والكعبة ، ويخص القاهرة والملك الكامل نفسه ، فى هذه القصة الطريفة التى يحكيها صاحب النفح : « وحكى أن بعض المغاربة كتب الى الملك الكامل بن العادل بن أيوب رقعة من ورقة بيضاء ، ان قرئت فى ضوء السراج كانت فضية ، وان قرئت فى الشمس كانت ذهبية ، وان قرئت فى الظل كانت حبرا اسود ، وفيها هذه الأبيات :

لئن صدنى البحر عن موطنى وعينى بأشواقها زاهرة
فقد زخرف الله لى مكة بأنوار كعبته الزاهرة
وزخرف لى بالنبى يثربا وبالملك الكامل القاهرة

فقال الملك الكامل قل :

وطيب لى بالنبى طيبة وبالملك الكامل القاهرة

وأظن ان المغربى اندلسى لقوله : لئن صدنى البحر عن موطنى ، فلذلك ادخلته فى أخبار الأندلسيين »(١٩) .

* * *

---

(١٨) النفح ٢٤٢/٦
(١٩) النفح ٣٢٦/٤ ، ٣٢٧

٣ ـ مدح مصر وتفضيلها على غيرها :

مثلما حن الشعراء الى مواطنهم التى انحدروا منها فقد غلبهم الحنين الى مصر ومدحوها ايضا ، ومن ذلك قول الخياط يمدح أهل مصر :

« يا أهل مصر أنتم للعلا كواكب الاحسان والفضل
لو لم تكونوا لى سعودا لما وافيتكم أضرب فى الرمل »(٢٠)

حيث يراهم كواكب الاحسان والفضل ، ويشتق من الكواكب معنى السعود والتفاؤل وهو لهذا جاءهم على الرغم من وعورة السير فى الرمال وصعوبة الرحلة ووعثاء الطريق . أما ابن الفارض فيعقد مقارنة بين دمشق ومصر ، ومثلما فضلت بلدان على مصر نجده ـ على العكس ـ يفضل مصر على الشام او دمشق (جلق) فعلى الرغم من أن دمشق جنة لمن اراد أن يتفاخر او يتباهى ، فقد كان من الممكن أن تصل الى الشموخ والقمة لولا ما بها من وباء ، واذا قيل ان نهر بردى هو كوثرها الغالى ، فاننى اقول انه غال بموتها ، ويعقد الشاعر فى هذا المجال جناسات كثيرة ، منها هذا الجناس التام بين « وباهى ـ وباها » وكذلك بين : « برداها ـ برداها » .وهكذا يمهد الجو للانتقال الى مدح مصر فهى وطنه وفيها وطره وحاجته ومشتهى نفسه ، وعينه لا تسكن الى غيرها ولو حدث ذلك فان شيئا غريبا قد حدث ، ولذا فان الأمر يسترعى الانتباه ويقتضى التساؤل ، ويجانس جناسا تاما بين سلاها وما سلاها :

« جلق جنة من تاه وباهى وربـاها أربى لولا وباها
قال غال : بردى كوثرها قلت غال برداها برداها

---

(٢٠) النفح ٣٩٣/٢

وطنى مصر وفيها وطرى ولنفسى مشتهاها مشتهاها
ولعينى غيرها ان سكنت يا خليلى سلاها ما سلاها »(٢١)

ومصر كذلك تفخر على دمشق بأن فيها الروضة وان دمشق لو رأت قوس الروضة لعادت مخذولة وارتد سهمها الى نحرها ، هكذا يصوغ النواجى هذين البيتين اللذين يرى المقرى أنهما من باب تفضيل الوطن من حبه ، ويروى معهما ثلاثة ابيات للوداعى فى الحنين والشوق الى مصر ونيلها ورجالها ، يقول المقرى : « واما قول النواجى سامحة الله تعالى :

مصر قالت : دمشق لا تفتخر قط باسمها
لو رأت قوس روضتى منه راحت بسهمها

فهو من باب تفضيل الوطن من حبه ، ومنه قول الوداعى :

رو بمصر وبسكانها شوقى يجدد عهدى الخالى
وأرو لنا يا سعد عن نيلها حديث صفوان بن عسال
فهو مرادى لا يزيد ولا « ثور » وان رقا ورقا لى »(٢٢)

ويضيف المقرى بيتين للشهاب الحجازى ويرى أنهما من نفس الباب أو على نفس النمط أى تفضيل الوطن لحبه ، فالشهاب الحجازى حينما قيل له : ان دمشق قد زهت بزهرها ، وطلب اليه ان يمضى ليشاهد جوزها ولوزها رفض ، ورفض أن يبدل بلدته بها ورفض كذلك زهرها ولوزها ، فهو رفض على سبيل الاعتزاز بالوطن :

---

(٢١) النفح ٤٠٦/٢ ، ٤٠٧
(٢٢) النفح ٤٠٤/٢ ، ٤٠٥

« قالوا دمشق قد زهت لزهرهـا فامض وشـاهد جوزهـا ولوزهـا
فقلت لا ابدل بلدتى بهـا ولست ارضى زهرها ولوزها »(٢٣)

وقد شغلت هذه الأمور الناس الى درجة ممقوته ، حتى وصلت الى صـورة من صـور النقائض فى بعض الأحيان ، فاذا قال ابن نباته عن حمامات الشـام انها دون القلتين رد العز الموصلى منتصرا لحمامات الشـام بنفس المعنى :

« اليك حياض حمامات مصر ولا تتكثرى عنـدى بمـين
حياض الشـام أحلى منك مـاء واطهر وهى دون القلتـين

وهذان البيتان جواب منه عن قول ابن نباتة :

أحواض حمام الشآم الا اسمعى لى كلمتين
لا تذكرى أحواض مصر فانت دون القلتين »(٢٤)

وتدور مساجلة بين وادى جلق وبحر النيل ، ويتناول المعنى اكثر من شـاعر أو ناظم :

« قد قال وادى جلق للنيل اذ كسروه اعين جبهتى لك ترفـع
فاجاب بحر النيل لمـا أن طغى عندى مقابل كل عين أصبع »(٢٥)

وشبيه به قول آخر :

« ماذا يفيـد المعـنى من الأذى المتتـابع
بمصر ذات الايـادى ونيلهـا ذى الاصـابع »(٢٦)

---

(٢٣) النفح ٤٠٥/٢
(٢٤) النفح ٤٠٤/٢
(٢٥) النفح ٤٠٥/٢
(٢٦) النفح ٤٠٥/٢

ولكن القضية سرعان ما تحسم بطريقة فكهة يتبين منها ميل قائل البيتين التاليين الى الشــام ، حيث يجعل اللغط الدائر بين حلب والشام ومصر ، ويأتى هو ليزعم لنفسه الانصاف فيقول « خير الامور الوسط » والوسط فى هذا البيت هو الشــام ، فهى وسط بين حلب ومصر :

« فى حلب وشــــامنا ومصر طــــال اللغــــط
فقلت قــــول منصــــف خير الأمور الوسط »(٢٧)

لكن لســـان الدين الخطيب فى خطبة كتابه فى المحبة يحسم هــذه القضية لصالح مصر ، « فوقع للحجة المصرية التسليم ، وقالت الســنة الاقلام معربة عن ألسنة الاقاليم :

سلمت لمصر فى الهـــوى من بلد يهديه هواؤه لدى استنشــــاقه
من ينكر دعواى فقل عنى لـــه تكفى امراة العزيزمنعشاقه»(٢٨)

* * *

٤ ـ ذم مصر وأهلها :

لعل ابن سعيد ـ الذى اكثر من الحديث عن مصر فى شعره ونثره ـ هو الذى لمس ايضا تلك الجوانب السلبية التى قد تضايق الزائر لمصر ، ولعل من أطرف هذه المضايقات ما حدث له عندما اراد زيارة الفسطاط فركب حمارا بعد تأفف ، ولكن المكارى اشـــار الى الحمـــار فطــار بــه واثار غبارا اسود فى عينيه ودنس ثوبه ، فحكى لنا هــذه القصــــة بالنثر والشعر معا :

---

(٢٧) النفح ٤٠٥/٢
(٢٨) النفح ٢٨٠/٦

« لما استقررت بالقاهرة تشوفت الى معاينة الفسطاط ، فسار معى اليها احد اصحاب القرية فرايت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة ، لا عهد لى بمثلها فى بلد ، فركب منها حمارا واشار الى أن اركب حمارا آخر ، فانفت من ذلك جريا على عادة ما خلفته من بلاد المغرب ، فاخبرنى انه غير معيب على اعيان مصر ، وعاينت الفقهاء واصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها ، فركبت ، وعندما استويت راكبا اشار المكارى الى الحمار ، فطار بى ، واثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ، ودنس ثيابى ، وعاينت ما كرهته ، ولقلة معرفتى بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكارى ، وقعت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج ، فقلت »(٢٩) .

وهذه الحادثة ــ التى نرى شبيها لها الآن فيما يحدث عند سفح الأهرام مع السائحين وزائرى الآثار ــ يقصها علينا ابن سعيد فى شعر طريف :

« لقيت بمصر اشد البوار ركوب الحمار ، وكحل الغبار
وخلفى مكار يفوق الرياح لا يعرف الحق منها استطار
اناديه مهلا فلا يرعوى الى أن سجدت سجود العثار
وقد مد فوقى رواق الثرى والحد فيه ضياء النهار

فدفعت الى المكارى اجرته ، وقلت له : « احسانك ان تتركنى امشى على رجلى ، ومشيت الى أن بلغتها ، وقدرت الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين »(٣٠) .

---

(٢٩) النفح ٢/٣٣٩

(٣٠) النفح ٢/٣٤٠

والطريف فى الأبيات السابقة هو استخدام كلمات مثل « البوار » و « يرعوى » و « استطار » وتعبيرات مثل : « ركوب الحمار ، وكحل الغبار » ، « سجدت سجود العثار » والتصوير الفنى الرائع فى البيت الأخير الذى نرى فيه الثرى رواقا ممدودا فوق الشاعر ، وضياء النهار دفينا فى لحد بسبب ظلمة الغبار المثار وكثافته ٠

ربما تركت هذه الحادثة انطباعا سيئا فى نفس ابن سعيد ، جعله — عندما يصف القاهرة — يركز حديثه حول ضيق الدروب وظلمتها وكثرة التراب والأزبال ، وجوها الكدر المغبر بسبب التراب الأسود الذى يقبض النفس :

« وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا فى ذلك ، ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدرى وتدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج الى بين القصرين ٠

ومن عيوب القاهرة انها فى أرض النيل الأعظم ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل ، لئلا يصادرها ويأكل ديارها ، واذا احتاج الانسان الى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور الى موضع يعرف بالمقس ، وجوها لا يبرح كدرا بما تنثره الأرض من التراب الأسود ، وقد قلت فيها حين أكثر على رفاقى من الحض على العود فيها :

يقولون سافر الى القاهرة ومالى بها راحة ظاهرة
زحام وضيق وكرب وما تثير بها أرجل سائرة

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا ، وجوا مغيرا ، فتنقبض نفسه ، ويفر أنسه »(٣١) ٠

لا شك أنه التبرم الشديد والسخط على القاهرة وما بها من مظاهر سيئة وقد كان ذلك دافعا للشاعر الى الضيق بمصر كلها وبأهلها ، مما جعله يهجوهم هجاء مقذعا استمده من طبيعة مصر التى تقل فيها الأمطار ، فجعل قلة المطر بخلا من السحب ، ينسحب على ناسها وأهلها الذين أحس بينهم أنه معذب ، بهذه الطريقة يتكر على نفسه الاقامة فى مصر :

كم ذا تقيم بمصر معذبا بذويها
وكيف ترجو نداهم والسحب تبخل فيها »(٣٢)

واذا كان هناك من يشارك ابن سعيد سخطه على مصر وبرمه بها فليس هنالك خير من ابن عتبة الاشبيلى الذى رحل من الأندلس الى المشرق « وكان فارق اشبيلية حين تولاها ابن هود ، واضطرمت بفتنة الأندلس نارا ، ولما قدم مصر هاربا من تلك الاهوال تغيرت عليه البلاد ، وتعدلت به الاحوال ، فلما سئل عن حاله ، بعد بعده عن أرضه وترحاله ، بادر وأنشد :

أصبحت فى مصر مستضاما أرقص فى دولة القرود
واضيعة العمر فى أخير مع النصارى أو اليهود
بالجد رزق الانام فيهم لا بذوات والا جدود
لاتبصر الدهر من يراعى معنى قصيد ولا قصود
أود من لؤمهم رجوعا للغرب فى دولة ابن هود »(٣٣)

---

(٣١) النفخ ٣٤٦/٢
(٣٢) النفح ٣٥٠/٢
(٣٣) النفح ٦٦٤/٢

لا شك أن هذه البرم الشديد بمصر والهجاء اللاذع للمصريين انما كان رد فعل طبيعى لمعاناة الشاعر الذى هرب من اضطهاد ابن هـود فوجـد فى مصر من هم أشـد من ابن هود ، وتعبيره « أصبحت فى مصر مستضاما » هو مفتاح كل هذه المـأساة التى تجعله يصم الدولة المصرية بأنها دولة القرود ، وان دوره فيها هو دور المهرج والمصفق : « ارقص فى دولة القرود » ، لا المشـارك والمواطن الجاد ، ولهذا تنتهى أبياته اللاذعة بأمنية يتمناها وهى العودة الى الغرب فى دولة ابن هود هربا من لؤم هؤلاء المصريين .



خاتمـــــة

فى اطار حديثنا عن العلاقة بين مشرق العالم العربى الاسلامى ومغربه تتبعنا صورة مصر فى كتاب « نفح الطيب » الذى صنفه احمد ابن محمد المقرى القرشى فى مصر ٠ وقد رأينا أن الأندلسيين قد درجوا على اطلاق اسماء بعض المدن أو البلدان المشرقية على مدن اندلسية لانهم وجدوا شبها بين هذه وتلك أو لأن الجنــود الفاتحـين من تلك البلدان قد استقروا فى هذه المدينة بعينها ، وجريا على هذه السنة نزل أهل مصر تدمير ـ التى هى مرسـية ـ واطلق عليها اسم مصر لهذا السبب ، وللشبه بينها وبين مصر فى انبساط ارضها وفيضان النهر بها ، وزراعتها التى تقوم على نفس طريقة زراعة الأرض فى مصر ٠

وقد تكونت لدينـا صـورة لمصر فى الاندلس أو ـ على وجـه التحديد ـ فى « نفح الطيب » شـارك فى لم شـتاتها الاندلسيون والمغاربة ثم المصريون وبعد ذلك الشـــوام والعراقيون وغيرهم ممن نزلوا مصر مهاجرين أو نازحين ، ومنهم من درس بالقاهرة والاسكندرية وغيرهما من مدن مصر ، أو تولى القضاء فيها ٠ وقد تتبعنا هذه الصورة التى تجلت لنـا فى جانبين : اما الأول فهـو التصوير الخالص لمصر ومعالمها الحضارية ، وأول معلم طبيعى يشـد انتباه معظم من تحدثوا عن مصر أو كتبوا فيها شـعرا هو النيل ، ذلك النهر العظيم الذى يهب الحياة لأرض مصر والمصريين ، ولم يقتصر الحديث عن النيل على الصورة الخارجية وانما امتزج بمشاعر الشاعر وأحاسيسه ، ففيضانه دموع الشاعر واضطراب موجه خفقان قلب الشـاعر أيضا ٠ ورأينا النيل كذلك يرتبط بالمنظر الطبيعى العـام لأرض مصر الخضراء بحيث تحول شـاطىء مصر الى جنة ، بل ان النيل نفسه ليفيض من جنة الخلد ليهب الحيـاة للبشر على هذه الأرض ، وتراوح التعبير بين المباشرة والتصوير المجازى ٠

ثم يلقانا النيل أيضا فى الحديث عن الفسطاط وأهم شاعر يحدثنا عن الفسطاط هو ابن سعيد الذى يعجب بها وأهلها ويراهم الطف من أهل القاهرة . ويدخل ابن سعيد الخليج الذى بين القاهرة ومصر ويحدثنا عما يحدث فيه من سكر وعربدة قد يؤديان الى القتل فى بعض الأحيان ، ولكن الطبيعة على جانبى الخليج تشد ابن سعيد فتلهيه بعض الشىء عن ليل الخليج فيرسم لوحات فيها تشخيص وتجسيد وبث للحياة الانسانية فى عناصر الطبيعة . تأتى بعد ذلك جزيرة الروضة التى كانت تسمى الصالحية حيث يتوقف عندها الشاعر مع وفاء النيل ووصول الماء اليها كأنما هو زائر عاشق يروم الوصل ، وتعرض لنا الجزيرة فى شتى الوانها وأبهى حللها تحت جنح الليل ويعقد ابن سعيد علاقة بين الجزيرة وعناصر الطبيعة الاخرى فالبدر يقبل ثغر سورها والانوار تتضاحك فى جنباته ، والعجائب تظهر على صفحة النيل .... الخ .

أما القاهرة فمدينة حديثة بناها الفاطميون ، عظيمة لكن اسمها أعظم منها وقد أعجب ابن سعيد فيها ببركة الفيل وأرض الطبالة ، ووصفهما . والى جانب بركة الفيل تذكر أيضا بركة الحبش التى وصفها ابو الصلت امية بن عبد العزيز ، وقد وصف الرصد الذى بظاهر مصر ، ووصف القصور أيضا ، ومن ذلك وصفه لقصر يسمى « منزل العز » الذى يكاد يستلهم فيه تصوير البحترى لايوان كسرى حيث الرسوم المنقوشة والمحفورة أو التماثيل البارزة تتحرك فى ساحة قتال .

وفى ختام هذه المعالم التى صورها الشعراء فى مصر نرى الاهرام التى لا أدرى لماذا قل شعرهم فيها . ربما كان ذلك راجعا الى أن الطبيعة والحياة الحضارية الأندلسية قد طبعت هؤلاء النازحين الى مصر بطابعها الخاص الذى جعلهم يهتمون أكثر بهذين الجانبين فى مصر عند وصولهم اليها . أما الشعر الذى قاله أبو الصلت أمية فى وصف الهرمين

فقــد أتى فاترا باردا على عكس الشاعر المصرى ظافر الحداد الذى امتلأ شــعره بالتصوير الفنى والمشاعر التى بثت الحياة فى الجمادات ٠

الجانب الثانى فى صورة مصر فى الأندلس تلمسناه فى تصـــوير العواطف المختلفة بل والمتضاربة أحيانا ، حيث يشــعر المهاجر بالوحشــة والغربة والحنين الى وطنه الاندلسى ، فابن ســعيد يحن الى المغرب ، يحن الى أندلســه بمدنها وطبيعتها ولياليه بها وملاعب صباه ، وحين يصل الأمر الى عقد مقارنة بين النيل ونهار الوادى الكبير فى اشبيلية نجد النيل لا يساوى شيئا أمام ذلك النهر ذى النغمات التى تطرب ــ على حد قوله ــ ويعرض الشاعر لحالتيه المــاضيه فى الاندلس والحاضرة فى مصر لينتصر للماضى ويحن اليه لأنه بمصر يعانى من الاهمال والتجاهل الشــديد بل انه ينادى بالمغربى شأنه شأن أى انسان خامل أو عـــادى وتمتلىء نفسه بالسخط والتذمر حتى ليقرر العودة الى بلاده ٠ ولا يقف ابن ســعيد وحده فى التقليل من شــأن النيــل والانتصار لانهار أخرى أندلسية فها هو لســان الدين بن الخطيب يقلل من شــأن النهر العظيم أمام نهر غرناطة الصغير البائس ، الشنيل ٠ وكما فضلت حمص فضلت غرناطة ليس على مصر وحدها ، بل على مصر والعراق والشام ٠ وقد كان السبب فى ذلك كله نفسيا يرجع الى ارتباط الانسان النازح لا شعوريا بوطنه ، والى جانب من ذكرنا يوجد الرحالة ابن جبير كذلك ٠ وقد كان هذا الاحساس بالغربة قاســما مشتركا بين الاندلسيين وغيرهم من الوافدين على مصر ٠ والى جانب هذا كان هناك احساس آخر عكسى بالحنين الى مصر فى البعد عنها ، وهو احســاس لم يقتصر على المصريين بل شاركهم فيه المغاربة والاندلسيون ٠ فمثلما يتشوق الشاعر المصرى ابن نباته وهو بالشام الى مصر والمقس والنيل ، فان أبا عبد الله محمــد ابن على بن عمر العبدرى التونسى الشــاطبى الأصل يشتاق الى مصر ويذرف الدموع على أحبابه ٠

والى جانب الحنين الى الاندلس أو الحنين الى مصر تراوح الشعراء فى مدحهم لمصر وتفضيلها على غيرها ، وذمهم لها ولاهلها . ففى المجال الأول نراهم يمدحون أهل مصر ويعقدون مقارنات بين مصر والشام ليفضلوا مصر . وان كان المقرى يرى أنه من قبيل تفضيل الوطن وحبه . ولكن هذه الأمور التى شغلت الناس الى درجة أصبحت معها مرذولة وصلت الى ان تتخذ شكلا من أشكال النقائض بين البلدين .

أما المجال الثانى وهو ذم مصر فقد رأيناه عند ذلك الرجل الذى اكثر من ذكر مصر والحديث عنها وهو ابن سعيد الذى لم يتوقف عند الجوانب الايجابية فى مصر وحسب ، بل لمح بعينى الناقد تلك الجوانب السلبية التى وجدت فى مصر منذ ذلك الحين ، حيث يقع السائح فى أحابيل الحوذى والمكارى . ولكنه الى جانب هذه الحادثة الطريفة لاحظ ما بالقاهرة من أوساخ وقاذروات وأزبال وجو مترب أسود ، وانتقد ذلك كله وأحس بالضيق الشديد فى القاهرة مما جعله يصب سخطه على أهلها ، وقد شاركه فى ذلك ابن عتبة الاشبيلى الذى جاء هاربا من ابن هود وفتنته فلاقى بمصر العنت والذل وصار راقصا فى « دولة القرود » .

لا شك أن زاويتى الرؤية اللتين تناولنا من خلالهما الموضوع قد بينتا لنا كل جوانب صورة مصر فى « نفح الطيب » من الناحية الخارجية ؛ أى تصوير مصر ووصفها ووصف مبانيها وآثارها ومعالمها ، ومن الناحية الداخلية النفسية فى تلك المشاعر المتضاربة التى لا تخلو منها النفس الانسانية .

* * *

الفهـــرس

* * *

رقم الايداع ٥٠٨٨/١٩٨٨

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلى
الأزهر ٣ حيمنان الموصلى
بجوار جامع الدعاء
ت ٩٢٥٣٠٤ القاهرة

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com